@ketab_n
Follow Me
7.6.2014

ألكساندر دوما

عصيدة الكونتيسة بيرت

رواية

@ketab_n
Follow Me

ترجمها عن الفرنسية
محمد بنعبود

مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ

ألكساندر دوما

عصيدة الكونتيسة بيرت

@ketab_n

رواية

ترجمها عن الفرنسية
محمّد بنعبود

مراجعة
كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PZ23 D836 B6812 2013
Dumas, Alexandre, 1802-1870
[La bouillie de la comtesse Berthe]
عصيدة الكونتيسة بيرت : رواية / تأليف ألكساندر دومـــا ؛ ترجمة محمد بنعبود ؛ مراجعة كاظم جهاد.-أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2013.
137 ص. ؛ 13×20 سم.
مختارات مشروع «كلمة» من أدب الناشئة الفرنسيّ.
ترجمة كتاب : La bouillie de la comtesse Berthe
تدمك: 978-9948-17-146-1
أ-بنعبود، محمد. ب-جهاد، كاظم.

هذه ترجمة لرواية الكاتب الفرنسيّ ألكساندر دوما

عصيدة الكونتيسة بيرت

Alexandre Dumas, *La bouillie de la comtesse Berthe*

رسم الغلاف والرّسوم الدّاخلية للرسّام الفرنسيّ برتال
Illustrations par Bertall (1820-1882)

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

الهدهد HUDHUD
ص.ب: 440050، الهدهد للنشر والتوزيع شارع دمشق - الصفيص دبي - الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 042206117

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

عصيدة الكونتيسة بيرت

Twitter: @ketab_n

المحتوى

هذه السّلسلة 7
هذا الكتاب 9

عصيدة الكونتيسة بيرت

ديباجة 15
من هي الكونتيسة بيرت 19
أقزام الكوبولد 21
القصر القديم 24
الوفد 25
عصيدة العسل 30
الطّيف 36
خبز الجنود والماء الصافي 46
فالديمار فون روزنْبَرغ 59
المُهَدهِدة 63
فيلبولد فون آيزنْفيلد 68
الفارس هانْس فون فاربورغ 72
هيلدا 78
يد النار 85
الفارس تورالد 89

Twitter: @ketab_n

طارِدا الأشباح 92
الفارس ذو المِغْزَل 121
الكنز 130
خاتمة 135

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

يشكّل أدب النّاشئة أحد أهمّ أجناس الأدب العالميّ، تتبارى أكبر دور النّشر الغربيّة لاحتضان أفضل نماذجه، القديم منها أو الجديد. مبدئيّاً، يتوجّه هذا الأدب للنّاشئة ممّن تتراوح أعمارهم بين الثّامنة والثّامنة عشرة، فهو يتمّم أدب الأطفال ويمهّد لأدب الرّاشدين أو الكبار. ومع ذلك فما فتئت نصوصٌ عديدة منه تجتذب قرّاءً من مختلف الأعمار، لما يجدون فيها من فتوّةٍ للسّرد وعذوبةٍ للّغة وانتشارٍ باذخٍ للخيال.

رافقَ هذا الأدب، في صيَغه الشّفويّة، فجرَ جميع الثّقافات. واعتباراً من القرن السّابع عشر حوّله لفيفٌ من الكتّاب الفرنسيّين إلى جنسٍ أدبيّ مكتوب قائم بذاته وله أساليبه ومناخاته وقواعده. ولئن كانَ أغلب روّاده الكبار، وبخاصّةٍ شارل بيرّو وماري-كاترين دَنوا، قد أوقفوا عليه جلّ نشاطهم الإبداعيّ، مكتفين بالكتابة للنّاشئة، فإنّ العديد من كبار كتّاب الأجيال والقرون اللاّحقة قد خضعوا لجاذبيّة هذا الجنس، فخصّوه بأثَرٍ أدبيّ أو أكثر أضافوه إلى إبداعاتهم المنضوية تحت لواء أجناسٍ أخرى. بفضل صنيعهم هذا، لم يعد أدب النّاشئة محبوساً في إطار الشّائق والعجيب أو في مناخات قصص السّاحرات والجنيّات، بل صار يخترق كلاًّ من التّاريخ والواقع المعيش وجغرافية العالَم وآفاق الفكر الرحبة ويضيئها من داخلها، مصوِّراً إيّاها بعين الأجيال الصّاعدة وحساسيّتها. هكذا مارس هذا الجنسَ الأدبيَّ أساطينُ في فنون السّرد من بينهم رائد الرّواية التاريخيّة ألكساندر دوما والكاتب الواقعيّ غي دو موباسان وآخرون عديدون.

Twitter: @ketab_n

إنّ الغاية التي وضعت الكونتيسة دو سيغور رواياتها للنّاشئة تحت شعارها، ألا وهي تثقيف النّاشئة وتوعيتهم بوسائل الأدب والتّعجيب القصصيّ، تظلّ حاضرة بدرجات متفاوتة من الإضمار في كلّ النّماذج الكبرى من هذا الجنس. من هنا، فإنّ هذه السّلسلة، المخصّصة لترجمة مجموعة من المؤلّفات العالميّة في هذا المضمار، والتي يساهم في نقلها إلى لغة الضادّ فريق من ألمع أدبائها ولغويّيها ومترجميها، إنّما تطمح لا إلى تزويد النّاشئة العرب بنماذج أساسيّة من هذا الجنس الأدبيّ فحسب، بل كذلك إلى إغناء الأدب العربيّ نفسه بإجراءات سرديّة وشعريّة قد يكون كتّاب العربيّة في شتّى ممارساتهم ومَشاربهم بحاجة إليها.

وللباعث نفسه، يتمثّل أحد رهانات هذه السّلسلة، من حيث صياغة النّصوص، في تحاشي التبسيط المفرط والإفقار العامد للّغة، اللّذين غالباً ما يُفرَضان على هذا النّمط من الحكايات، بتعلّة توجّهها للناشئة. بلا تقعيرٍ للكلام، ولا تعقيدٍ لا جدوى منه، سعى محرّر هذه السّلسلة ومترجموها إلى إثراء خيال الناشئة لا بالصّوَر والتّجارب فحسب، بل بالأداءات اللغويّة والإجراءات التعبيريّة أيضاً. ولقد بدا لنا خيارٌ كهذا أميناً لطبيعة النّصوص وكتابتها من جهة، وللمطلب الأساسيّ المتمثّل في إرهاف التلقّي الأدبيّ للناشئة من جهة أخرى. وإذا ما التبسَ على هذا القارئ أو ذاك معنى مفردةٍ ما أو صيغةٍ ما، فلا أسهلَ من أن يستعين بالمَعاجم أو يسأل الكبار حولَه إضاءتها له. هكذا تنشأ تقاليد في القراءة وتتعزّز طرائقُ تشاوُرٍ وحوار.

المحرّر

كاظم جهاد

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

عُرِفَ الروائيّ الفرنسيّ ألكساندر دوما (1802-1870) Alexandre Dumas بعدد من الرّوايات التاريخيّة التي فرضت اسمه رائداً لهذا الجنس الأدبيّ. إلى هذا ألّف عدداً من النّصوص السّرديّة الموجَّهة للناشئة، تتراوح بين الروايات القصيرة والحكايات الوجيزة والأقاصيص. هذا المنجَز الكبير تحتفي به هذه السلسلة بتقديمها لقرّاء العربيّة ترجمات وضعها محمّد بنعبود لاثنتين من روايات دوما للناشئة هما **كسّارة البندق** و**عصيدة الكونتيسة بيرت**، ولمنتخبات من حكاياته وأقاصيصه يضمّها كتاب ثالث مستقلّ.

بدأ دوما بنشر كتاباته للناشئة على انفرادٍ ابتداءً من 1838، ثمّ جمعها في ثلاثة مجلّدات صدرت بين العامين 1857 و1860.

تشّكل الرواية القصيرة الماثلة في هذا الكتاب، **عصيدة الكونتيسة بيرت**، بباعثٍ من غِناها السّرديّ والخياليّ ودلالاتها الفكريّة، النصّ الأهمّ والأشهر بين كتابات دوما للناشئة. تتمحور أحداثها حول نذْر الكونتيسة بأن تُقدَّم لسكّان المنطقة التي تأوي القصر المنيف الذي ورثته هي عن أجدادها عصيدة من العسل كلّ سنة. لكنّ مَن سيخْلفونها في إدارة القصر يمتنعون عن تقديم العصيدة فتنجم عن هذا الإخلال بالنّذر سلسلة صراعات مع العفاريت التي تحرس القصر يسردها الكاتب بأسلوب آسِر، حافل بالتشويق والغرائب والمفاجآت.

Twitter: @ketab_n

للوقوف على نشأة هذه الرواية، ينبغي الإشارة إلى الجولة الواسعة في حوض نهر الرّاين التي قام بها الكاتب في 1838 بهدف جمْع عناصر من الفولكلور الحكائيّ الألمانيّ الذي كان هو يمحضه إعجاباً كبيراً نلمس آثاره في كتاباته للناشئة بخاصّة. فكما استلهم دوما في روايته للناشئة المعنوَنة **كسّارة البندق** حكاية وجيزة للألمانيّ هوفمان Hoffmann وقام بتطويرها إلى رواية، يستلهم في روايته التالية عناصرَ غفْلاً من الموروث الشعبيّ الجرمانيّ. لكنْ ينبغي التّنويه أيضاً بأنّ الكاتب لا يكتفي بنسْخ ما يقتبس من حكايات أو بتنميتها وإطالتها، بل يتدخّل في أحداثها ولغتها ونسيجها العامّ تدخّلاً حاسماً، فيضيف إليها من بنات خياله الخصب، ويبثّ فيها فلسفته في الحياة ورؤيته للعلاقات الإنسانيّة. وكما في **كليلة ودمنة** وسواها من عناصر الموروث العربيّ والشّرقيّ، تعمل نصوص دوما هذه باستمرارٍ على الإعلاء من مكانة العقل، فيه يمكن خلاص الإنسان وعليه تقوم أسس التعامل المشترك.

يؤكّد الشرّاح أيضاً على عناية الكاتب بالجانب الشّفويّ لكتابة الحكاية، فكأنّه وضع نصوصه لتُقرأ بصوتٍ عالٍ ولتُسرَد سرداً كما كان هو الأمر في المحكيّات القديمة.

وغالباً ما يستشهد دوما في حكاياته للناشئة بأدباء وفنّانين من معاصريه ومن القدامى، وبعدد من أساطير مختلف الشعوب، متوخّياً تثقيف قرّائه واجتذابهم بِسِحر الميثولوجيا وتاريخ الأدب في آنٍ معاً.

وأخيراً، مثلما حظيت رواية **كسّارة البندق** بمجموعة رسوم فاتنة وضعها أحد أساطين فنّ تزيين الأعمال الأدبيّة في القرن التّاسع عشر،

Twitter: @ketab_n

ألا وهو الرسّام الفرنسيّ برتال (1820-1882) Bertall، ننشرها بصحبة ترجمتها في هذه السّلسلة، حظيت **عصيدة الكونتيسة بيرت** بمجموعة رسوم وضعها الفنّان نفسه ترافق هذه الترجمة أيضاً وتزيدها بهاءً وقوّة إيحاء(*).

المحرّر

(*) الحواشي التي ترافق النصّ هي من إعداد المحرّر، وقد أُحيلت إلى آخِر الكتاب تلافياً لتزاحُمها والرسّوم المرافقة للحكاية.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

عصيدة الكونتيسة بيرت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ديباجة

عليَّ أن أقول لكم، في البداية، يا أبنائي، إنّني قد جلتُ في العالم قليلاً[1]. وبصفتي تلك، أي باعتباري رحّالة، قد أصبح بالنسبة إليكم، ذاتَ يوم، بمثابة روبنسونَ جديدٍ، لن يكون بالتّأكيد في مستوى روبنسونٍ الذي تعرفونه في رواية دانيال دوفو[2]، لكنَّه سيعادل دون شكّ كلّ أمثاله الذين ابتُدِعوا بَعده.

والحال أنّني خلال واحدة من تلك الرّحلات الألفِ التي حدّثتكم عنها لتوّي، كنت على متن سفينةٍ بخارية وهي تصعد نهر الرّاين العجوز، كما يسمّيه الألمان. كانت خارطتي والكتاب الذي كان دليلَ رحلتي موضوعين أمامي على الطّاولة، وأنا أتابع ببصري كلَّ تلك القصور التي ألقى الزّمن بِفُتاتِ شُرُفاتها إلى النّهر - وأنا أستعير هنا عبارة شاعرٍ صديق. كان كلّ قصر يمرّ أمامي ويحكي لي عن ماضيه الذي كان على هذا القدر أو ذاك من الشّاعرية، عندما لمحتُ، مندهشاً، قصراً ليس ماثلاً على خارطتي. لذلك التجأتُ، كما سبق لي أن فعلتُ أكثر من مرّة منذ غادرتُ مدينة كولونيا، إلى أحدهم، ويدعى السيّد تاشنبورش، المولود سنة 1811، أي في السَّنة نفسها التي ولد خلالها ذلك الملك المسكين الذي لم يرَ قطّ مملكته [3]. مَنْ توجهت إليه كان رجلاً قصيراً أشبه ما يكون بمجلّد عريض مزيّن بالأبيات الشعرية وبالكتابات النثرية، يعْرضها على أوّلِ قادمٍ يجَشِّم نفسه عناء تصفحّه. سألته عمّا يكونه ذلك القصر، فاستغرقَ في التأمّل للحظةٍ ثمّ أجابني:

Twitter: @ketab_n

-هذا القصر هو قصر فيستغاو.

- أيمكن أن نعرف من كان يملكه؟

- بالتأكيد. كان في ملكية آل روزنْبَرغ، وبما أنه كان أخذَ يتهدّم، حوالى القرن الثالث عشر، فإنّ الكونت أوسموند والكونتيسة بيرت، زوجتَه، أعادا بناءه. وقد تمخّضت إعادةُ البناءِ هذه عن تقليد متفرّد للغاية.

- وما هو هذا التقليد؟

- آه! هذا أمر لن يسلِّيك، فهو يتعلّق بحكاية أطفال.

- ليكنْ، أيّها السيّد تاشنبورش! أنت تأنف من ذلك! آه! أنت تعتقد أنّ خرافتك لن تسلِّيني لأنّها حكاية للأطفال. هاكَ هذا إذن.

واستخلصتُ من جيبي كتاباً صغيراً مجلَّداً بروعة وأريته إياه؛ كان يتضمّن حكايات «ذات القلنسوة الحمراء» و«جِلد الحِمار» و«العصفور الأزرق»[4].

- ما رأيك في هذا؟

- رأيي، أجاب بنبرة احتفالية، أنّ هذه الحكايات الثلاث كلَّها من الرّوائع.

- إذن، فأنت لن تعرب الآن عن أيِّ تردُّدٍ في أن تحكي لي خرافتك.

- إطلاقاً؛ فأنا أرى أنّها ستُحكى لشخصٍ جديرٍ بتقديرِ قيمتها.

- لكن، أنت تعلم أنَّ في حكايا الجنيّات، ذلك أنني أفترض أنَّ خرافتك من هذا النوع أو تقرب منه...

- تماماً.

Twitter: @ketab_n

– كنت أقول إنّه، في حكايا الجنيّات، تكون للعنوان قيمةٌ كبيرة؛ أنت رأيتَ تلك العناوين الجميلة: «ذات القلنسوة الحمراء» و«جِلد الحِمار» و«العصفور الأزرق».

– اعلمْ إذن أنَّ عنواني لا يقلّ عنها أهمية.

– وما هو؟

– «عصيدة الكونتيسة بيرت».

– لقد أَثرْتَ شهيّتي أيّها السيّد تاشنبورش العزيز.

– في هذه الحال، استمع إذن.

– أنا أستمع إليك.

وشرع يحكي حكايته هكذا:

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

من هي الكونتيسة بيرت

كان يا ما كان، كان هناك فارسٌ مقدام يُسمّى أوسموند فون روزنْبَرغ[5]، اختار زوجةً له فتاةً جميلة تحمل اسم بيرت. لم تكن هذه الفتاة – الحسناء، وأنا على يقين من ذلك، تشبه في شيء

Twitter: @ketab_n

السيّدات العظيمات لزماننا هذا، رغم أنّها أنبلُ من أنبلهنّ؛ لكنّها لم تكن تتحدّث إلاّ اللُّغة الألمانية القديمة؛ لم تكن تحسن الغناء باللُّغة الإيطالية ولا تقرأ باللّغة الإنجليزية، ولم تكن ترقص رقصةَ الفرَس ولا رقصة الفالس ذات الزمنَين الإيقاعيَّين، ولا رقصة البولكا؛ لكنّها كانت، بالمقابل، رقيقة وعطوفاً وحريصة كلَّ الحرص على أن لا تشوب سمعتَها أية شائبة. وعندما كانت تقوم بجولة في قُراها، لم تكن تقوم

بها على متن عربة أنيقة، بمعية كلبِ الملك شارل الجالس على المقعد الأماميّ، وإنّما كانت تقوم بها راجلةً، وهي تحمل في يدها حقيبة الصّدَقات. كانت جملة «لِيُعوِّضْكِهَا الله»، التي ينطق بها عجوز أو أرملة أو يتيم، تبدو لها ألذَّ على سمعها من أجمل الألحان التي يؤديها أمهرُ المغنين؛ تلك الألحان نفسها التي يُؤدِّي لسماعها قطعةً ذهبيةً أولئك

Twitter: @ketab_n

الذين يرفضون تقديم قطعة نقدية صغيرة من النّحاس للفقير الواقف شبهِ عارٍ وهو يرتعش من البرد على قارعة الطَّريق، حاملاً قبّعته المثقوبة في كفِّه.

أقزام الكوبولد

للأسباب الآنف ذِكرها راحت بركَاتُ البلد كلِّه تَهمي، مثل ندىً من السّعادة، على الكونتيسة بيرت وزوجها: غَطَّت الغِلالُ الذَّهبية حقولهما وأثقلت عناقيد العنب الضخمة كرومَهما، وعندما كانت سحابة سوداء محمَّلة

بالبرَد وبالبرق تشرع في الاقتراب من قصرهما، كانت هبَّةٌ غيرُ مَرئية تدفع بها، على الفور، نحوَ منزلِ ساكنِ قصرٍ شرِّيرٍ فتُدوِّي فوقه وتعبث به.

Twitter: @ketab_n

من كان يا ترى يدفع السَّحَابة السَّوداء، بتلك الطريقة، ومن كان يحفظ مزارعَ الكونت أوسموند والكونتيسة بيرت من الصَّاعقة ومن البرَد؟ سأخبركم.

كان أقزام القصر هم من يقومون بذلك.

عليَّ أن أخبركم، يا أبنائي الأعزَّاء، بأنّه، في غابر العصر والزمان، كان يوجد في ألمانيا جنسٌ من العفاريت الطَّيبين اختفَى، للأسف الشَّديد، منذئذٍ؛ كان أطوَلهم يبلغ بالكاد ستَّ بوصات، وكان يُطلَق عليهم

اسم أقزام الكوبولد. كان أولئك الأقزام، الّذين يوازون في قِدمهم قدمَ التاريخ، يسعدون بالخصوص في القصور التي يكون مُلاَّكُها، حسب مشيئة الله، طيِّبين مثلهم. كانوا يمقتون المُلاَّك الشِّريرينَ، وكانوا

Twitter: @ketab_n

يصيبونهم بأذيّاتٍ صغيرةٍ على مقاسِهم، وكانوا، على العكس من ذلك، يحمون، بسلطتهم التي كانت تمتدُّ لتشملَ كلّ العناصر، مَن تُقَرِّبهم طبيعتُهم الممتازة من طبيعتهم هم أنفسهم. هذا إذن هو السّبب في أنّ هؤلاء الأقزام- الذين سكنوا قصر فيستغاو منذ أزمنة سحيقة- كانوا يكنّون بالخصوص للكونت أوسموند ولزوجته الكونتيسة بيرت حبّاً جمّاً، هم الذين من قبلُ كانوا آباءَهُما وأجدادَهُما وأجدادَ أجدادِهما،

فكانوا يدفعون بأنفاسِهم السّحابةَ المحمَّلة بالبرَد وبالبرق بعيداً عن مزارعها المباركة.

Twitter: @ketab_n

أقبلت بيرت، ذات يوم، على زوجها وقالت:

– سيِّدي العظيم. لقد أصبح قصرنا قديماً ومنذراً بأن يتهدَّم؛ نحن لن نستطيع البقاء لزمن طويلٍ آمنينَ في هذا القصر الرِّيفي الصَّغير، وأعتقد، إنْ لم يكن لديكم رأيٌ آخر، أنَّ علينا أن نبني مسكناً آخر.

– تلك رغبتي أنا أيضاً، أجاب الفارس، لكنّ ثمةَ شيئاً يُقلقني.

– وما الذي يقلقك؟

– رغم أنّنا لم يسبق لنا أن رأينا أقزام الكوبولد الطَّيبين الذين يسكنون أُسُسَ قصرنا، فإنّكِ قد سمِعتِ، بالتَّأكيد، أحاديثَ عنهم. لقد سمع والدي عن أبيه الذي سمع عن جدِّه أيضاً أنّ هذه العفاريتَ الصّغيرة هي أصل برَكَة قصرنا الرّيفي الصّغير هذا؛ فربَّما يكونون قد أقاموا عاداتهم في هذا المسكن، وإن أغضبناهم وأزعجناهم، بهدْمنا

Twitter: @ketab_n

للقصر، فربّما تخلّوا عنا وربما ذهبتْ سعادتُنا معهم.

أقرّت بيرت هذه الكلمات المترعة حكمة، فقرَّرت مع زوجها أن يستمرّا في السّكن في القصر كما هو بدَلَ أن يُحزنا بلا سببٍ العفاريتَ الصّغارَ الطيّبين.

الوفد

خلال اللَّيلة التالية، كان الكونت أوسموند والكونتيسة بيرت

نائميْن في سريرهما الواسع ذي القبّة العظيمة المرفوعة بأربعة أعمدة معقوفة، عندما سمعا ضجيجاً شبيها بضجيج خطوات متعدِّدة، يقترب قادماً من جهة غرفة الاستقبال. انفتح بابُ غرفة النوم، في

Twitter: @ketab_n

اللَّحظة نفسِها، فرأيا مقبلاً نحوهما وفداً من تلك الأقزام الصّغيرة التي تَحدَّثْنا عنها لِتَوِّنا. كان رئيس الوفد يلبس ملابس فاخرة صُمِّمت وفقَ طراز ذلك الزمان: كان يرتدي معطفاً من الفرو، وعلى خصره دثارٌ

مخمليّ، مع سروال من قطعتين، وينتعل حذاءين صغيرتين طرَفُ كلٍّ منهما مدبَّبٌ بشكل حادّ. كان يحمل على حزامه سيفاً من الفولاذ الدَّقيق يتكوّن مقبضه من جوهرة واحدة، ويحمل في يده، بأدبٍ، قبّعتَه المكسوَّةَ

ريشاً؛ فاقترب من سرير الزَّوجين اللّذين كانا يحملقان فيه مندهشيْن، ووجَّه إليهما هذا الكلام:

Twitter: @ketab_n

إلينا تناهت إشاعةٌ تقول إنّكما
أملاً في أن تكون أقدارُكما زاهِرَةً،
راودتْكما هذا المساءَ رغبةٌ
في تشييدِ قصرِ آبائكما من جديد.
ذلك أمرٌ مستحَبٌّ، فالقصرُ الصَّغيرُ أضحى قديماً
قوّضَ الدّهرُ الصّخورَ العظيمةَ العملاقة.
والماءُ يتسلَّلُ إليكم، أثناء الأيام الماطرة،
عبْرَ معطف القصرِ الذي مِنْ لبْلاَبٍ.
لِيتَهَاوَ إذن مُنْهدماً البرجُ القديم:
وليخرجْ منه منزلٌ جميل؛
لكن، لْتُقبلْ من لدن الأجدادِ الفضيلةُ العتيقة،
ولْتَسْكُنِ المنزلَ الجديد.

عقَدت الدَّهشَة لسان الكونت أوسموند ممَّا يحدث أمامه، فلم يستطع أن يردّ على كلمات رئيس الوفد سوى بإشاراتٍ ودّية من يده؛

لكنّ الوفد اكتفى بإشارة الكونت اللَّبقة تلك، وانسحب بعد أن حيّا

Twitter: @ketab_n

الزوجين تحية رسمية.

استيقظ الكونت والكونتيسة، صباحاً، مرتاحَيْن للغاية، لأن الصعوبة العظمى قد انتَفَت الآن: فَعمِلَ أوسموند، بعد أن أبدى أصدقاؤُه الأقزامُ عدمَ اعتراضهم، على استقدام مهندسٍ ماهرٍ

حَكَم، في اليوم نفسه، على القصر بالهدم؛ فشرع جزءٌ من رجاله في

العمل، بينما تَوجَّه الباقون ليأتوا بحجارة جديدة من المقالع وليقطعوا

Twitter: @ketab_n

شجرات البلوط والصّنوبر الضخمة قصدَ صُنْع العوارض الخشبية القوية. وقبل أن ينتهي شهرٌ، كان البرج قد سُوّيَ تماماً بالأرض.

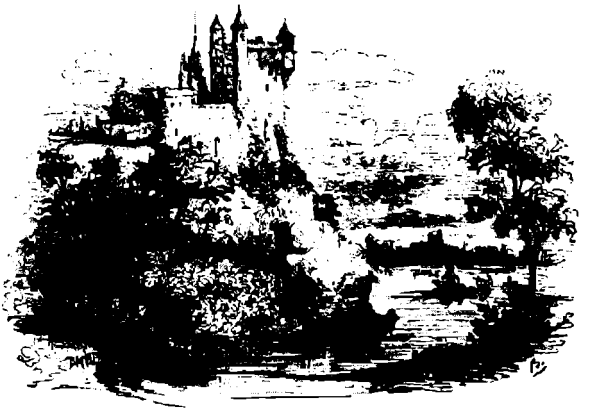

وبما أن القصر الجديد، حسب تصريح المهندس، لم يكن ممكناً أن يتمّ بناؤه إلاّ في غضون ثلاثة أعوام، فقد انسحب الكونت والكونتيسة

إلى مسكن متواضع في أرضٍ مكريّةٍ[6] عائدة إليهما، بجوار قصرِهما الجميل الصّغير.

Twitter: @ketab_n

غير أنّ بناء القصر أخذ يتقدّم بوتيرة سريعة؛ والسّبب أن العُمَّال كانوا يشتغلون نهاراً بينما كان الأقزام يواصلون العمل ليلاً. في البداية ارتعب العمّال عندما بدأوا يلاحظون، كلّ صباحٍ عندما يلتحقون

بعملهم، أنَّ جدران القصر تصبح أعلى قليلاً. حادثوا المهندس في الأمر، فحدَّث بدوره الكونت، فاعترف له هذا الأخير بأنّ كلّ الأمور تدفعه لأن يعتقد، رغم أنّه ليس على يقين تامّ من ذلك، بأنّ الأمر من فعل الأقزام الذين عندما علموا باستعجاله السَّكنَ في قصره الجديد، انخرطوا في عملهم اللّيليّ هذا. وبالفعل، فقد عثر العمّال، ذات صباح، في مكان العمل، على ناقلةِ حجارةٍ صغيرة لا يتجاوز حجمها حجمَ كفِّ اليد، لكنّها مصنوعة بشكل رائع من خشب الأبنوس، محاطة

Twitter: @ketab_n

دائرتها بالفضَّة، فكانت تبدو وكأنّها لعبةٌ صنعت من أجل طفل الملك. أراها العامل الذي عثر عليها لأصدقائه، ثمّ حملها، مساءً، إلى بيته كي

يقدِّمها لطفله. لكن ما إن حاول الطفل أن يُمسكَ بالنَّقالة الخشبية الصَّغيرة حتّى شرعت تجري من تلقاء نفسها ففرّت من الباب بسرعة كبيرة، ولم يستطع عاملُ البناءِ المسكينُ اللّحاقَ بها، فاختفت بسرعة مذهلة. وفي اللَّحظة نفسها، سُمعت أصواتُ ضحكٍ ترتفع، حادّة

ومُصِمَّة وطويلة: كان أقزام الكوبولد هم من يستهزئ به.

كان أمراً مفرحاً، في الحقيقة، أنْ قرَّر الأقزام الانخراطَ في العمل؛

Twitter: @ketab_n

ذلك أنّهم لو لم يكونوا قد ساهموا بقسطهم الوافر في البناء، لَمَا كان بناءُ القصر ليتمَّ قبل انقضاء ستِّ سنوات. كان المهندس يعرف ذلك، أي أنّ البناء لن يتمّ قبل انقضاء ستّ سنوات، لكنّ عادة هؤلاء الفضلاء المتعاملين مع الصّخور – ليجنّبكم الله، يا أبنائي الصّغار، أن تعرفوا ذلك في مشروعٍ تكونون ضحاياه يوماً – أن يكذبوا إلى النّصف.

وهكذا، فحوالى نهاية السنة الثّالثة، وفي الوقت الّذي غادر طيرُ الخُطّاف جَوَّنا، بعد أن كان غادر نوافذَنا؛ في هذه المرحلة من العام حيث تصبح باقي الطُّيور – التي هي مرغمة على البقاء في برد بلْدَاتنا –

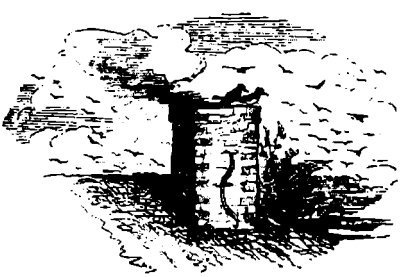

شديدةَ الكآبة وقليلة في عددها، بدأت ملامحُ القصر الجديد تتشكّل، لكنّ عمليات البناء كانت ما تزال بعيدةً عن أن تصل إلى نهايتها. ولم يَفُتِ الكونتيسة أن تلاحظ ذلك. وبالفعل، فذاَت يومٍ، عندما كانت تُشرف على الأعمال، قالت للعمّال بصوتها الرّقيق:

Twitter: @ketab_n

– أيّها العمّال الطّيبون، هل يتقدّم العمل بالقدر الذي تَقْدِرون على جعله يتقدّم به؟ ها هو ذا فصلُ الشِّتاء يطرق بابنا، والكونت وأنا نقطن في مكان غير ملائم تماماً، ونريد أن نغادره إلى قصرنا الجميل هذا، الذي أنتم آخذون في تشييده. فهَلاَّ عملتم، يا أبنائي، على أن تسرعوا في العمل، وأن تحاولوا إتمامه في غضون شهر واحد حتّى نلتحق به. أمّا أنا من جهتي، فأعدكم بأنّني، خلال اليوم الّذي تضعون فيه آخر حجر على أعلى صومعة منه، سأُمتّعكم بعصيدةِ عسلٍ لم يسبق لكم قطُّ أن ذقتم لها مثيلاً؛ بل أكثر من ذلك، أُقسم لكم أنّكم ستحظون، أنتم وأبناؤكم وحفَدتكم، في اليوم الذي يصادف، كلّ عام، ذكرى الانتهاء

من بناء القصر، بالمجاملة نفسها؛ متّي أنا في البداية، ثمّ من أبنائي ومن حفَدتي.

في العصور الوسطى، لم تكن الدعوة إلى تناول عصيدةِ عسلٍ، كما قد

Twitter: @ketab_n

يبدو الأمر لأوّل وهلة، دعوةً قليلةَ القيمة؛ ذلك أنّها كانت تَعِلَّة للدّعوة إلى عشاء فاخر. كان يقال آنذاك: تعال غداً لتتناول معي عصيدة عسل، مثلما يقال اليوم: تعال لتشاركني تناولي حسائي؛ ففي الحالتين معاً يُفهم أنّ الأمر يتعلّق بتناولِ وجبةِ عشاءٍ، مع ذلك الفارق البسيط المتمثِّل في أنّ العصيدة تؤكل في آخر الوجبة، في حين أنّ الحساء يُتناوَل في بدايتها.

عندما سمع العُمَّال هذا الوعدَ سال لعابهم اشتهاءً، فضاعفوا من مجهوداتهم وتقدّموا في العمل بسرعة كبيرة، ممّا أدّى إلى الانتهاء في الفاتح من تشرين الأوّل (أكتوبر) من بناء القصر بشكل نهائيّ.

فهيَّأت الكونتيسة بيرت، من جهتها، وتنفيذاً منها لوعدها، مأدبةً زاخرةً، حضرها كلُّ من شارك في العمل، ولو بقسط يسير. ونظراً لضخامة المأدبة اضطرَّت إلى تقديمها في الهواء الطّلق.

عند بداية الوليمة، كان الجوّ يبدو ولا أكثر ملاءمةً، ولذا فإنّ أحداً لم يرَ ما يشين في تقديم الوجبة، بتلك الطريقة، في العراء. لكن في الوقت

Twitter: @ketab_n

الذي شرعوا فيه يقدِّمون، في خمسين من الصّحون العظيمة، عصيدةَ العسل التي كان ما يزال بخارها يتصاعد في الهواء من دفئها، شرعت نُدَفُ الثَّلج السّميكة والباردة تسقط في الصّحون.

أدّى ذلك الحادث، الذي أفسد نهاية العشاء، إلى انزعاج الكونتيسة انزعاجاً عظيماً، حتّى أنّها قرّرت أن يُقام ذلك الحفل، خلال السّنوات القادمة، في شهر الزهور، وأن يكون تاريخ الذِّكرى، الذي تقدّم خلاله عصيدة العسل، هو الفاتح من أيّار (مايو).

أكثر من ذلك، عملت الكونتيسة بيرت على تأمين هذا التقليد الاحتفاليّ الورِع بعَقْدٍ تُلزم فيه نفسها وتُلزم نسلَها ومَن سيخلفونها، بأيّ صفة انتقل القصر إليهم، بتقديم وجبةِ عصيدةِ العسل، في الفاتح

Twitter: @ketab_n

وقَّعت بيرت العقدَ، الذي كتبه موثِّق عدليّ على رقٍّ، وخُتِمَ بأختام الكونت ثمّ وُضع في أرشيفات العائلة.

الطّيف

أشرفَتْ بيرت بنفسها، طيلة عشرين سنة، بالطِّيبَة نفسها وبالسّخاء ذاته، على الوليمة التي أرستْ هي تقليدَها؛ لكنّها ماتت خلال العام الواحد والعشرين، بعد أن أضحت لدى تابعيها بمثابة قدِّيسة، فدُفنت في مقابر العائلة وسط دموع زوجها وأسف سكّان البلد كلِّهم. عقب ذلك بسنتين، توُفّي الكونت أيضاً، بعد أن مكَّن العادةَ الّتي أسّستْها زوجتُه من أن تستمرّ وتتوطّد، وكان الوريث الوحيد له هو ابنه الكونت أولريك فون روزنْبَرغ الّذي ورث عن أبيه الشّجاعة وعن أمّه

Twitter: @ketab_n

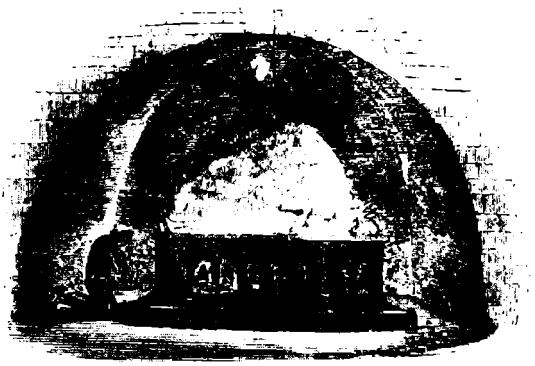

الفضيلة، فلم يغيّر شيئاً من أمورِ الفلاّحين، بل عمل، على العكس من ذلك، على تحسينها.

لكنّ حرباً ضارية أُعلنت فجأة، فصعدت فرق عسكريةٌ معاديةٌ

كثيرة نهر الرّاين، واستولت تباعاً على القصور المشيّدة على ضفّتَي النّهر؛ كانوا قادمين من عمق ألمانيا، وكان الإمبراطور نفسه هو من

Twitter: @ketab_n

أعلن الحرب على مُلاّك القصور.

لم تُسعِف أولريك قوّته كي يقف في وجه الغزو؛ غير أنّه كان بإمكانه، نظراً لشجاعته وإقدامه، أن يظل في قصره مقاوماً إلى أن يُدفن تحت

أنقاضه، لو لم يكن قد فكّر في الشّرور التّي كان بإمكان هذه المقاومة اليائسة أن تجلبها للبلد. لذلك قرَّر، وهو يفكِّر في مصلحة أتباعه، أن ينسحب إلى الألزاس، تاركاً خلفه العجوزَ فريتس، مديرَ شؤونه، كي

Twitter: @ketab_n

يسهر على ممتلكاته وأراضيه التي ستصبح تحت سيطرة العدوّ.

كان الجنرال الذي قاد الفرق العسكرية نحو المنطقة يسمَّى دومينيك؛ فسكن القصر الذي وجده مستجيباً لرغباته، وأقام جنودُه في جواره.

كان هذا الجنرال من أصلٍ وضيعٍ؛ بدأ مشواره بأن كان جنديّاً عاديّاً ثمّ أصبح جنرالاً، ليس بفضل شجاعته واستحقاقه، وإنَّما بفضل الأمير.

أنا أقول لكم هذا، يا أطفاليَ الأعزّاء، كي لا تعتقدوا أنّني أهاجم من يصبحون شيئاً من لا شيء؛ على العكس، أنا أعتبر من ينتقلون من

حال إلى حال نماذجَ تُحتذى، لكن شريطة أن يكونوا يستحقون التحوّل الّذي يحصل على مصيرهم المهنيّ؛ فثمَّة نوعان من مشاهير الضّباط: الضّباط الّذين يصِلون والضّباط الوصوليّون.

Twitter: @ketab_n

والحال أنّ ذلك الجنرال لم يكن سوى رجلٍ وصوليّ فظٍّ وعنيفٍ: وبما أنّه تربّى على الخبز الحافّ وماء العين، فإنّه كان يأمر – وكأنّه يريد

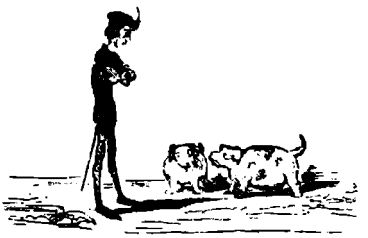

أن يستدرك الزّمن الضائع – بأن تقدّم له وجباتٌ فاخرة بأطعمة فاخرة وبشراب سائغ؛ كما أنّه كان يقدّم ما يتبقّى من الطّعام للكلاب عوضَ

أن يجعل من يحيطون به يستفيدون منه.

هكذا استدعى، منذ اليوم الأوّل لوصوله إلى القصر، العجوزَ فريتس وسلّمه لائحة ضرائب يعتزم جبايتها من البلد. كانت لائحة

Twitter: @ketab_n

الضّرائب مبالغاً فيها إلى درجة أنّ فريتس جثا على ركبتيه أمامه وهو يتوسّل إليه أن لا يُثقل بهذه الطّريقة القاسية على الفلاّحين الفقراء.

غير أنّ الجواب الوحيد الذي أجاب به الجنرال هو أنّ أقبح شيء في الدّنيا بالنّسبة إليه هو أن يسمع الناس يشتكون؛ ولذلك فإنّه سيعمل على مضاعفة المبلغ بالنِّسبة لكلّ من يأتي إليه محتجّاً. كان الجنرال هو الأقوى، لأنّه يتمتّع بحقّ المنتصر، وكان على الباقين أن يخضعوا.

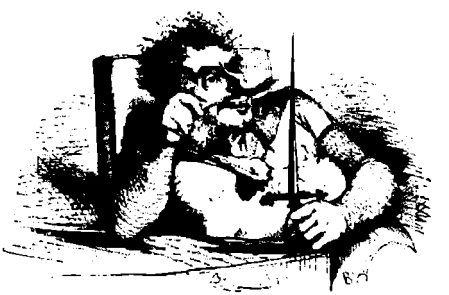

يمكننا أن نخمّن بسهولة، نظراً لمعرفتنا بمزاج السيد دومينيك، أنّ فريتس استُقبل بطريقة سيّئة للغاية، عندما أتى ليحدّثه عن التقليد الذي دشّنتْه الكونتيسة بيرت: شرع الجنرال يضحك باستخفاف ثمّ أجاب بأنّ الأتباع هم من خُلقوا كي يطعموا أسيادَهم، وليس الأسياد هم من عليهم أن يُطعموا أتباعهم؛ وأنّه، نتيجة لذلك، يدعو ضيوف الكونتيسة بيرت المعهودين للذّهاب لتناول وجبة عشاء الفاتح من أيّار

Twitter: @ketab_n

حيث يحلو لهم، معلناً أنّ ذلك لن يكون، بأيّ حال من الأحوال، في بيته.

مرّ إذن ذلك اليومُ الاحتفاليّ، للمرّة الأولى منذ خمس وعشرين سنة، دون أن يتجمّع حول المائدة الكريمة الأتباع المبتهجون لمنطقة روزنْبَرغ، لكنّ الرّعب الّذي كان يوحي به دومينيك كان بارزاً إلى درجة أن أحداً

لم يجرؤ على أن يحتجّ. وعلى أيّ حال، فإن فريتس كان قد نفَّذ الأوامر التي تلقّاها، فأخطر الفلاّحين بأنّ نية سيّدهم الجديد لا تسير في اتّجاه الاحتفاظ بالتقاليد القديمة.

أمّا دومينيك فقد تناول عشاءه بطريقته المعتادة، ثمّ انسحب إلى غرفته بعد أن نصَّب، كما هي العادة، حرساً في الدهاليز وأمام أبواب القصر، فاندسَّ في فراشه ونام.

Twitter: @ketab_n

استيقظ الجنرال، على غير عادته، في منتصف اللّيل. وبما أنّه كان اعتاد على أن ينام نوماً عميقاً، فإنه قد اعتقد، في البداية، أنّ صباح اليوم التّالي قد أزف، لكنه كان مخطئاً، فالنّهار لم يكن قد بزغ بعد؛ إذ لمح، عبر انفراجات المصاريع، نجوماً تلمع في السّماء.

غير أنّ أمراً ما خارقاً للعادة كان يحدث في روحه: بدَا الأمرُ وكأنّه موجة من الرّعب؛ شعرَ بأنّ أمراً لا يدخل في نطاق البشر سيحدث له. بدا له أنّ الهواء كان يرتعش حوله كما لو كان يَلفحه خفْقُ أجنحةِ أطيافِ اللّيل؛ وشرع كلبه المفضّل، المربوط في الباحة أسفل نوافذ حجرته، ينبح برنّة حزينة؛ ونتيجة لصيحة الكلب الشاكية تلك، شعر

ساكنُ القصر الجديد بالعرق البارد يلمع على جبهته. في تلك اللّحظة شرعت ساعة القصر تُعلن منتصف اللّيل ببطء وبصوت مرتفع؛ ومع

Twitter: @ketab_n

كلّ دقّة، كان رعب هذا الرّجل، الذي كان يعد مع ذلك رجلاً شجاعاً، يزيد، ممّا جعله يشعر، مع الدّقة العاشرة، أنّه غير قادر على تحمّل القلق الذي استولى عليه؛ فاستند على مرفقه مستعدّاً للوقوف قصدَ فتح الباب والذّهاب للمناداة على الحارس. لكن، مع الدّقة الأخيرة، وعندما كان ساقاه يكادان يلامسان خشب الأرضية، سمع الباب – الذي يَذْكر جيداً أنّه قد أقفله بنفسه من الدّاخل – ينفتح من تلقاء نفسه ويذهب ويجيء على مصراعه وكأنّه بلا أقفال ولا مزاليج. بعد ذلك انتشر ضوءٌ باهتٌ في الغرفة، وبدا وكأنَّ خطوة خفيفة – لكنّها جعلته، مع ذلك،

يهتزّ وتصل ارتعاشتُه إلى حدود نخاعه – تقترب في اتّجاهه. ظهرت، في الأخير، امرأة إلى جانب سريره، ملتفّة في كفن كبير أبيض وهي تحمل في يدٍ أحدَ تلك الفوانيس النحاسية التي اعتاد النّاس على إنارتها

Twitter: @ketab_n

قرب الأضرحة، وفي الأخرى رقاً عليه كتابة وختم. بدأت تقترب ببطء، عيناها ثابتتان، وملامحها صارمة، تتهادى خصلاتها على كتفيها، وعندما أصبحت إلى جانب من أتت تبحث عنه، قرّبت المصباح من الرّق بحيث يصبح الضّوء منصبّاً عليه، ثمّ قالت:

- قمْ بما هو مكتوب فيه.

أبقت المصباح، بتلك الطّريقة، قريباً من الرّق ما يكفي من الوقت كي يستطيع دومينيك، بعينيه الزائغتين، أن يقرأ العقد الذي يشكّل، بطريقة لا تقبل النقض، أساسَ التقليد الذي رفض هو الامتثال له.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك، وعندما انتهى من تلك القراءة المرعبة، انسحب الطّيف الكئيب والصامت والبارد، بالطريقة نفسها التي أقبل بها؛ ثمّ انغلق

الباب خلفه واختفى الضّوء، فسقط المُتمرّد الذي خلَف الكونت أوسموند، على السّرير، حيث ظلّ بلا حراك إلى غاية صباح اليوم التّالي، فريسةً لقلق أحسّ معه بالخجل، لكنّه عملَ جاهداً على أن يتجاوزه.

خبز الجنود والماء الصافي

لكن، مع بزوغ أوّل شعاع لضوء النّهار، انتفى السِّحر. قفز دومينيك من سريره وأمر – في ذروة غضبه – بالمناداة على العسس الذين كانوا يحرسون الممرّات والدهاليز والأبواب. أقبل هؤلاء

Twitter: @ketab_n

الأشقياء مرتعشين، لأنّهم كانوا، عند منتصف اللّيل، قد استسلموا لرغبة في النوم لا تقاوَم، وعندما استيقظوا بعد ذلك، عجزوا عن تحديد المدّة التي قضّوها نائمين. لكن، ولحسن الحظّ، اتّفقوا فيما بينهم، عندما التقوا على مدخل الباب، على أن يقولوا إنّهم أمّنوا حراسة جيدة. وبها

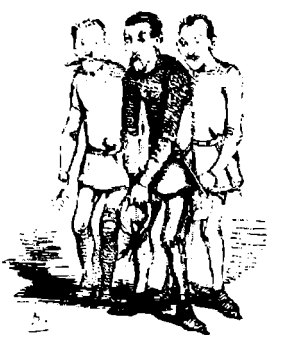

Twitter: @ketab_n

أنّهم كانوا مستيقظين عندما أزفت اللّحظة لتبديل الحرّاس، فإنّهم قد أمَّلوا في ألاّ يكون أحد قد انتبه إلى هفوتهم. وبالفعل، فقد أجابوا عن

أسئلة جنرالهم بأنّهم لا يعرفون عن أية امرأة يتحدث، وبأنّهم لم يروا شيئاً؛ عندئذ صرّح فريتس، الذي حضر الاستجواب، قائلاً لدومينيك إنّ الأمر لا يتعلّق بامرأة وإنّما بطيف أتى لزيارته؛ وإنّ هذا الطيف هو

طيف الكونتيسة بيرت. عقد دومينيك حاجبيه؛ لكنّه صُدِمَ بما سمعه من فريتس، فظلّ برفقته. وعندما علم منه أنّ ذلك التقليد كان قد أضحى

Twitter: @ketab_n

إجباريّاً بالنسبة للكونتيسة بيرت ولمن يرثها ولملاك القصر بعدها أيّاً كانوا، وفقاً لعقد كتبه موثّق عدليّ، ويوجد في أرشيفات العائلة – أمر فريتس بالذهاب للبحث عن ذلك العقد. وقد تعرف، من أوّل نظرة، على الرّق الذي كان قد أراه إيّاه الطّيف. حتّى تلك اللحظة، لم يكن دومينيك يريد أن يعرف أيّ شيء عن هذا الرّق؛ لأنّه فورَ وصوله إلى القصر كان قد طالب بالاطّلاع بدقّة متناهية على العقود التي تُلزِمُ الآخرين نحوه، لكنّه ما اهتمَّ قطّ بالعقود التي تُلزِمه هو تجاه الآخرين.

ورغم الجانبِ الإيجابيّ للعقد ودقّته؛ ورغم تنبيهات فريتس حول الإنذار الذي تلقّاه دومينيك، فإنّ هذا الأخير أبى أن يعير أيّ اهتمام لما حصل، ودعا، في اليوم نفسه، كلَّ قوّاد جيشه إلى وجبة فاخرة. كانت بالفعل إحدى أضخم الوجبات التي حدثَ له أن قدّمها.

وبالفعل، فإنّ دومينيك كان يوحي برعب عظيم، ممّا جعل الخدم يقدّمون الوجبة في الوقت المحدَّد، رغم أنّ أوامر إعداد المأدبة لم تُعط

Twitter: @ketab_n

إلاّ في الصّباح. أُعدّت الموائد بأبّهة باهرة. قُدِّمت للمدعوّين الأطعمةُ الشهية، والأشربة الرّفيعة القادمة من ضفاف الرّاين ومن فرنسا وهنغاريا، فجلسوا إلى الموائد وهم يَلْهَجُون بمدحِ جنرالهم. لكنّ سحنة

دومينيك، وهو يأخذ مكانه على المائدة، أصبحت ممتقعة من الغضب، فصاح متلفّظاً بأقذع السّباب:

– من هذا الحمار المُبردَع الذي وضع أمام مقعدي هذا الخبز الذي

يُقدّم للجنود؟

وبالفعل، فقد كان أمام الجنرال خبز مما يقدَّم عادةً للجنود، ومما

Twitter: @ketab_n

سبق له هو نفسه أن تناولَه مراراً وتكراراً في شبابه.

تبادل القاعدون نظرات حائرة، وهم لا يتصوّرون أن يوجد في الدّنيا إنسانٌ له كلُّ هذا القدْر من الجرأة حتّى يمازح بهذه الطريقة رجلاً معتزّاً بنفسه إلى تلك الدّرجة، فضلاً عن أنّه حقودٌ وسريع الغضب.

– تعالَ أيّها الأبله، قال الجنرال للخادم الواقف خلفه، واحمل هذا الخبز.

استجاب الخادم بكلّ السُّرعة الناتجة عن الخوف؛ لكنّ محاولتَه حمْل الخبز من على المائدة باءت بالفشل.

– سيّدي، قال بعد أن قام بمجهودات لم تؤدِّ إلى نتيجة، يبدو أن هذا الخبز مسمَّر أمامكم، فأنا لا أستطيع رفعه.

آنذاك أمسك الجنرال بكلتا يديه بالخبز – هو المعروف عنه أنّ

Twitter: @ketab_n

قوّته تعادل قوّة أربعة رجال – وحاول بدوره رفعه، لكنّ المائدة كلّها ارتفعت مع الخبز. وبعد خمس دقائق من المحاولات الفاشلة، سقط على

مقعده منهكاً وجبهته تتصبّب عرَقاً.

– هاتِ شراباً أيّها الأبله، هاتِ أجودَ أنواعِ الشّراب! قال بصوت غاضب وهو يمد كأسه. سأعرف وسأخبركم بمن أراد أن يُزجي وقته بهذه الطّريقة؛ كونوا على يقين من أنّه سينال جزاءه الذي سيكون على قدر فعلته. تناولوا عشاءكم، أيّها السّادة؛ أمّا أنا فسأشرب نخبكم.

حمل كأسه إلى شفتيه، لكنّه سرعان ما بصق ما في فمه وهو يصيح:

Twitter: @ketab_n

– من هذا النَّذل الذي قدّم لي هذا الشّراب الكريه؟

– أنا يا سيّدي، قال الخادم مرتعشاً وهو ما يزال يحمل القنّينة في يده.

– وما الذي تحويه تلك القنّينة أيّها البائس؟

– شراب التوكا، سيّدي.

– أنت تكذب أيّها الأبله، لقد صببت لي ماءً.

– يجب إذن أن يكون الشّراب قد تحول إلى ماء أثناء مروره من القنّينة إلى الكأس، سيّدي، قال الخادم، لأنّني قد صببت من القنّينة نفسها لجارَيْ سيّدي، ويمكن لهذين السّيّدين أن يشهَدا أنّني قد صببت لهما من شراب التوكا.

التفت الجنرال نحو جارَيه اللّذين أكّدا ما قاله الخادم لتوّه.

آنذاك عقد الجنرال حاجبيه: فقد بدأ يفهم أنّ المزحة هي ربما أشدُّ رعباً مما اعتقده لأوّل وهلة؛ ذلك أنّه اعتقد أوّل مرّة أنّها مزحةٌ صادرة عن أحياء، بينما هي، حسب كلّ القرائن، صادرة عن موتى.

حاول، بعد ذلك، أن يتأكّد بنفسه من الأمر، فأخذ القنّينة من يد السّاقي وصبّ كأساً من شراب التوكا لجاره. بدا لون الشّراب عادياً،

Twitter: @ketab_n

مشابهاً للون الزبرجد؛ ثمّ صبّ من القنّينة نفسها في كأسه، لكنّ الشراب، بالموازاة مع سقوطه في الكأس، كان يأخذ لونَ الماءِ وشفافيتَه وطعمَه.

ابتسم دومينيك بمرارة من هذا التّلميح المزدوج لوضَاعَة أصله. وبما أنّه ما عاد يريد البقاء بقرب هذا الخبز الأسود، الذي يبدو وكأنّه مُسمَّر على المائدة أمامه إمعاناً في إهانته، أشار إلى مساعده المقرَّب، والذي كان شاباً منتميّاً لإحدى أنبل عائلات ألمانيا، كي يتبادل المكان معه. استجاب الشابّ فانتقل الجنرال إلى الطرف الآخر من المائدة.

لكنّه لم يكن أسعد في مكانه الجديد ممّا كانَهُ في مكانه القديم؛ فبينما أصبح الخبز طيّعاً بين يدَي مساعده، واكتسى لونَه الطبيعيّ العاديّ، كانت كلُّ قطع الخبز التي يتناولها دومينيك تتحوّل في الآن نفسه إلى

Twitter: @ketab_n

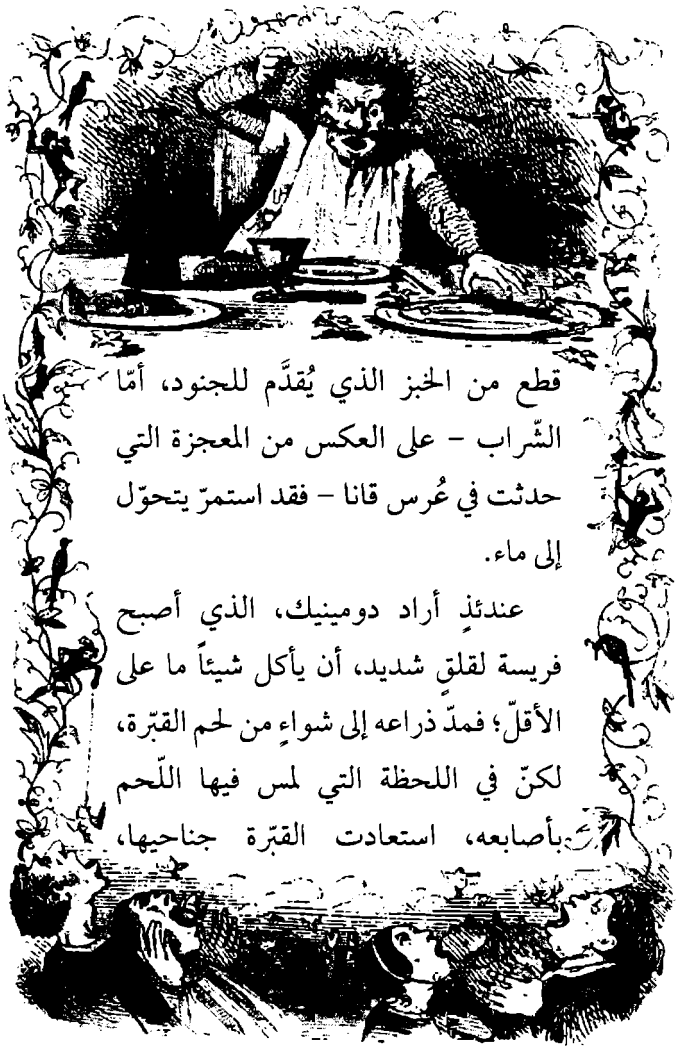

قطع من الخبز الذي يُقدَّم للجنود، أمّا الشّراب – على العكس من المعجزة التي حدثت في عُرس قانا – فقد استمرّ يتحوّل إلى ماء.

عندئذٍ أراد دومينيك، الذي أصبح فريسة لقلقٍ شديد، أن يأكل شيئاً ما على الأقلّ؛ فمدّ ذراعه إلى شواءٍ من لحم القبّرة، لكنّ في اللحظة التي لمس فيها اللّحم بأصابعه، استعادت القبّرة جناحيها،

فحلّقت وانصرفت لتسقط في أفواه الفلاَّحين الذين كانوا ينظرون، من بعيد، إلى تلك المأدبة.

Twitter: @ketab_n

ولَكُم أن تُقدّروا كم كان اندهاشُ الفلاّحين عظيماً وهم يرون النِّعْمَةَ قادمةً باتجاههم. فمثل تلك الخوارق كانت قد أضحت أمراً نادر

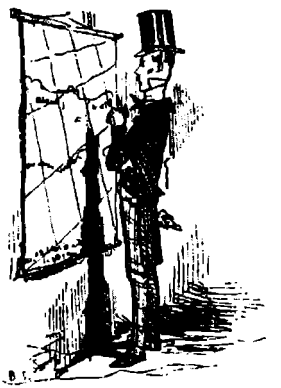

الحدوث؛ كما أنّ ذلك الحدث قد أصبح معلوماً في العالم برمّته، بحيث صار يُقال حتّى في يومنا هذا، في حقّ رجل ذي طموحات غير قابلة للتحقق: «هو يعتقد أنّ القبّرات ستسقط في فمه مشويّة».

أمّا دومينيك الذي يعود له الفضل في ظهور هذا المثل، فقد كان في أوج غضبه؛ لكنّه عندما فهمَ أن لا فائدة من محاولة مقاومة سلطة تفوق

Twitter: @ketab_n

قدرتُها القدرة الإنسانية، صرّح بأنّه لا يشعر بجوع ولا بعطش، وبأنّه سيضطلع بالضّيافة فحَسب، ويواصل تسيير الوليمة؛ تلك الوليمة التي أضحت، رغمَ فخامتها، مجلَّلة بالكآبة، أمّا المدعوّون، فقد احتاروا، غير عارفين ما عليهم القيام به.

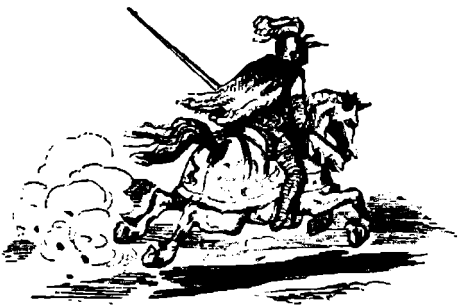

ثمّ أعلن دومينيك، مساء اليوم نفسه، أنّه قد تلقّى لتوّه رسالة من الإمبراطور، يأمره فيها بأن ينقل مقرّ قيادته العامّة إلى مكان آخر. وبما أن الرسالة تحثه على الاستعجال، كما أكّد، فقد انصرف في اللّحظة نفسها.

لست بحاجة لأن أقول لكم، يا أطفاليَ الأعزّاء، إنّ رسالة الإمبراطور لم تكن سوى تَعِلَّة، وأنّ ما جعل ذلك المنتصر اللاّمع يرحل بكلّ تلك السّرعة، لم يكن هو ما يُكنّه من احترام لأوامر صاحب الجلالة، وإنّما هو الخوف، ليس فقط من أن يتلقّى، خلال اللّيلة التّالية، زيارة من الكونتيسة بيرت، وإنما أيضاً أن يبقى محكوماً عليه، طيلة المدّة

Twitter: @ketab_n

التي كان سيقضيها في هذا القصر الملعون، بتناول الماء الصافي وخبز الجنود.

وبمجرّد انصراف الجنرال دومينيك، عثر فريتس في خزانة، كانت بالأمس خاوية، على حقيبة نقودٍ ثقيلة جدّاً، مُلصَقةٍ عليها ورقة كتبت

عليها هذه الكلمات القليلة: «من أجل عصيدة العسل».

ارتعب الشّيخ، أوّل الأمر، لكنّه عندما عرف خطّ الكونتيسة بيرت، سارع بصرف ذلك المال المبارك في إعداد العشاء السّنويّ الذي يجب أن يكون فاخراً، ما دام قد تأخّر عن موعده طيلة تلك المدّة.

تجدّد الأمر كلّ مطلع أيّار، إذْ كانت الكونتيسة بيرت تقدِّم المال الذي تُعَدّ به عصيدة العسل؛ إلى أن انسحب جنود الإمبراطورية، فعاد فالديمار فون روزنْبَرغ، نجل أولريك، ليسكن القصر بعد أن غادره أبوه بخمس وعشرين سنة.

Twitter: @ketab_n

لم يرث الكونت فالديمار أيَّ شيء من طيبة أجداده. ربما يكون المنفى الطّويل بالخارج قد جعل طباعه تصبح فظّة. لكن، ولحسن الحظ، كانت له زوجة تعمل، برقّتها وطيبوبتها، على التّلطيف ممّا كان يتّسم به ذهنه من غلظة ولذْع؛ وفي جميع الأحوال، فإنّ الفلاحين، الذين تضرّروا من جراء خمس وعشرين سنة من الحرب كانوا قد شرعوا ينظرون إلى عودة حفيد الكونت أوسموند، بوصفها مصدرَ سعادة.

بل أكثر من ذلك: بما أنّ نَذر الكونتيسة بيرت كان قد تأصّل

في تقاليد العائلة رغم مرحلة المنفى، فعندما أقبل تاريخ الفاتح من

Twitter: @ketab_n

أيّار – تلك الفترة التي يشرع خلالها الفلاّحون، عند كلّ تغيير يقع في القصر، ينتظرون بفارغ الصّبر كي يروا ما يكون مِن أمرِ سيّدهم الجديد – حصلت الكونتيسة فيلْهَيلْمينه من زوجها على إذن بالإشراف على الحفل. وبما أنّها كانت امرأة جذّابة الطّبع، فإنّ كلّ شيء سار في

منحاه المنتظر؛ حتّى لقد اعتقد الفلاّحون أنّ الزّمن قد عاد بهم إلى العصر الذهبيّ للكونت أوسموند والكونتيسة بيرت، الذي كثيراً ما كان يحدّثهم عنه آباؤهم.

أُقيم الحفل، خلال السنة التّالية، كالعادة، لكنّ الكونت فالديمار لم يحضره، بعد أن صرح أنّه يَعتبِر غيرَ ملائم أن يجلس رجلٌ في مقامه إلى المائدة نفسها التي يجلس إليها أتباعُه. شَرَّفت فيلْهَيلْمينه، إذن، وحَدها

Twitter: @ketab_n

حفلَ عصيدة العسل. وعلينا أن نقول ها هنا إنّ المأدبة لم تكن حزينة بسبب غياب مالك القصر اللاّمع عنها، إذ كان الفلاّحون يعرفون سلفاً أنّهم مدينون بالسّعادة التي ينعمون بها إلى قلب الكونتيسة الطّيب وإلى التّأثير الذي لها على زوجها.

انصرمت، على تلك الشّاكلة، سنتان أو ثلاثٌ انتبه القرويّون خلالها، أكثر فأكثر، إلى أنّهم بحاجة إلى الطّيبوبة الرّحيمة لفيلْهَلمينه كي تلطّف، باستمرار، من سوْرَاتِ غضب زوجها. كانت رقّتها الباهرة تمتدّ باستمرار، وكأنّها درعٌ، بين زوجها الكونت وبين أتباعه؛ لكن، وللأسف الشديد، سرعان ما انتَزعَت منهم السّماء حاميتَهم؛ ماتت الكونتيسة وهي تضع طفلاً صغيراً رائعاً سُمّي هيرمان.

كان يجب على المرء أن يكون قلبُه من حجر كي لا يأسف على ضياع ملاك السّماء الذي كان سكّان الأرض قد أطلقوا عليه اسم فيلهَيلْمينه؛ كما أن الكونت فالديمار بكى، بكاءً حقيقياً، وطيلةَ أيّام، الرفيقةَ الشّريفة التي فقدها. لكنّ قلب الكونت لم يكن معتاداً على المشاعر الرقيقة، وعندما كانت تنتابه مثْلُ تلك المشاعر، صدفةً، فإنّه لم يكن يستطيع أن يحتفظ بها لمدّة طويلة. إنّ النّسيان ينبت على الأضرحة بالسّرعة نفسها التي ينبت فيها العشب؛ ذلك أنّ الكونت فالديمار انتهى به الأمر إلى أن

Twitter: @ketab_n

نسي فيلهَيلمينه، في غضون ستّة أشهر، واتّخذ له زوجة ثانية.
من كان ضحية هذا الزواج الثاني؟ كان الضّحية للأسف هو الصّغير

المسكين هيرمان: كان قد أتى إلى الحياة من باب ملؤه الحزن؛ فقبل حتّى أن يعرف ما الّذي تعنيه لفظة «أمّ»، شعرَ بأنّه قد أصبح يتيماً. فزوجة أبيه تلكّأت في العناية به لأنّه لم يكن ابنها، ولأنّه سيكون، بوصفه الطّفل

Twitter: @ketab_n

البكر، وارثَ ثروات العائلة؛ فسلَّمته إلى مربّية غير مبالية شرعت تترك هيرمان الصّغير لساعات كاملة بمفرده وهو يبكي في مهده، كي تذهب لحضور هذا الحفل أو تلك السهرة أو الأمسية الرّاقصة.

المُهَدهِدة

ذات مساء، اعتقدت المربّية أنّ الوقت ما يزال باكراً، فظلّت في الجُنينة تتمشّى برفقة البستانيّ إلى أن سمعت دقّات منتصف اللّيل؛

وعندما تذكّرت أنّها قد تركت الصّغير هيرمان وحيداً منذ السَابعة مساءً، سارعت بالعودة، فتسللت تحت جُنْح الظّلام وعبرت باحة القصر دون أن يراها أحد، فأدركت السلّم وصعدته ملتفتةً، بقلق، يَمنَةً ويَسرةً، عاملةً على ألاّ يُسمع لخطوها صوتٌ، أنفاسها مكتومة؛

Twitter: @ketab_n

لأنّ ضميرها كان يسرّ لها أنّ ما تقوم به أمرٌ مُنكَرٌ، رغم عِلمها أنّ لا مبالاة الكونت وعدم اهتمام الكونتيسة بالطّفل يجعلانها في مأمن من كلّ لوم. لكنّها شعرت، بالرّغم من ذلك، باطمئنان عندما اقتربت من باب غرفتها ولم تعد تسمع صراخ الطفل؛ لا شكّ أن المسكين قد

استسلم للنّوم من فرط ما بكى؛ استخرجت، إذن، من جيبها، مطمئنّةً، المفتاح وأدخلته مُحَاذِرةً في القفل، وأدارته بأكبر قدر ممكن من اللّيونة، ثمّ دفعت الباب ببطء.

لكنّ المربّية الشّريرة، بالتّزامن مع انفتاح الباب وتسليطها نظرَها في الغرفة، شرعت تُصبحُ أكثر امتقاعاً وأشدّ ارتعاشاً، لأنّها رأت شيئاً غير قابل للفهم. فمفتاح الغرفة، كما سبق أن قلنا، كان في جيبها، وهي كانت متأكّدة تماماً من عدم وجود مفتاح آخر، لكن، ورغم ذلك، فإنّ امرأة أخرى قد ولجت الغرفة في غيابها؛ وتلك المرأة الممتقعة والكئيبة

Twitter: @ketab_n

والحزينة كانت، في تلك اللّحظة، تنتصب واقفةً قرب هيرمان الصّغير، وهي تحرّك بلطفٍ مهْده، بينما كانت شفتاها البيضاوان كالرّخام تتلّفظان بأغنية يبدو أنّ كلماتها غيرُ بشرية.

على أيّ حال، ومهما يكن الرّعب الذي استولى على المربّية، فبما أنّها قد اعتقدت أنّها أمام كائن يبدو مثلها منتمياً إلى جنس الأحياء، فإنّها

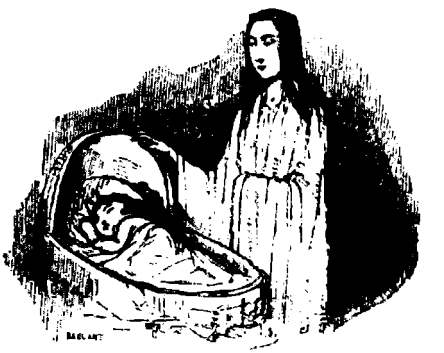

قد خطت بضع خطوات في اتجاه المُهدْهِدة الغريبة التي بدا وكأنّها لا تراها، وهي مستمرّة، دون أن تبدي حراكاً، في التغنّي بترنيمتها الرّتيبة والرّهيبة.

– من أنت؟ سألتها المربّية؛ من أين أتيت؟ وكيف أمكنك أن تدخلي هذه الغرفة التي كان مفتاحها الوحيد في جيبي؟

آنذاك مدّت المرأة المجهولة ذراعها في الهواء بأُبّهة وأجابت:

Twitter: @ketab_n

أنا ممّن لا ينسدُّ بابٌ في وجوههم:
في القبر الذي آوي إليه منذ خمسين سنة
أتت صيحات هذا الطفل لتهُزَّني،
شعرتُ فجأةً، فوق طبقةِ الحجارة،
وفي هذه الجثّة المنطفئة والمتحلّلة إلى غبار،
بقلبي يعود إلى الحياة وينتفض.

يا لَلطّفل المسكين الذي ساقه قدرٌ محتومٌ إلى هذه الدّنيا،
أبوه بلا طيبةٍ وأمُّه قضَتْ،
وُضع بين أيادي إنسانٍ يجرح عندما يَلمس،
يا من لا تستطيع أن تضع في وجه الشرِّ إلاّ ضعفَك؛
ويا مَن نمتَ هذا المساءَ غارقاً في حزنك
تماماً كما ينام العصفورُ وسط تغريده.

ستنام هذه اللّيلة أيضاً في هذه الدّنيا الفانية؛
لكنّك، غداً عندما يبزغ الفجر
ستُنتزع إلى الأبدِ من هذا القانون القاسي،
عندما ينزل من الفضاء الأزليِّ ملاكٌ مشعٌّ،
مهتدياً بصوتي، كي يأخذكَ على جناحيْه
ويأتي بك إليّ.

Twitter: @ketab_n

عندما تلفّظ طيف الجدّة – نَعمْ إنّه طيفها – بهذه الكلمات مالَ على المهد وقبّل الحفيد برقّة كبيرة. نام الطّفل ببسمة مرتسمة على شفتيه، وجنَتاه مورّدتان؛ لكن، عندما أقبلت أولى خيوط الصّباح، متسللة عبرَ زجاجِ النّافذة، وجدته ممتقعاً وبارداً مثل جثّةِ ميت.

وفي اليوم التّالي، أُخِذَ إلى مقبرة العائلة ودُفِنَ قريباً من قبر جدّته.

لكن اطمئنّوا، أطفالي الصّغار الأعزّاء، فالمسكين هيرمان لم يكن قد مات: قامت الجدّة من جديد، خلال اللّيلة التّالية، فحملته بين ذراعيها وذهبت به إلى ملك أقزام الكوبولد؛ وهو جنّيّ قصير وشجاع ومتعلّم، يسكن مغارة طويلة تمتد إلى ما تحت نهر الرّاين، فهو من سيتكفّل، بتوصيةٍ من الكونتيسة بيرت، بتربية الصّغير.

Twitter: @ketab_n

كانت فرحة زوجة الأب عظيمة عندما رأت الوارث الوحيد لعائلة روزنْبَرغ يموت، لكنّ الله أحبطَ آمالها، إذ لم تستطع أن تلد ولداً ولا بنتاً،

كما أنّها هي نفسها ماتت بعد ثلاثة أعوام. أمّا زوجها فالديمار فقد عاش

بعدها ثلاث سنوات أو أربعاً، ثمّ قُتِلَ أثناء ممارسته للصّيد البرّيّ؛ يقول

Twitter: @ketab_n

البعض إنّ خنزيراً بريّاً مجروحاً هو الذي قتله، ويقول آخرون إنّه قد مات على يدِ قرويٍّ كان هو قد أمر يوماً بضربه بقضيب.

آنذاك آلت ملكية قصر فيستغاو والممتلكات المجاورة له إلى قريب

بعيد اسمه فيلبولد فون آيزنْفيلد. لم يكن هذا الشّخص شرّيراً، وإنما كان أقبح من ذلك: هو من ذلك النّوع من الرّجال غير الآبهين بطبعهم، والذين ليسوا طيّبين ولا شرّيرين، والذين يقترفون الخير والشرّ معاً دون أيّ حبّ ولا كراهية، يستمعون فقط إلى ما يقال لهم، ويعتبرون آخرَ من يتكلّم في حضرتهم هو الذي ينطق عن حقّ. كان هذا القريب البعيد، فوق ذلك، شجاعاً ويقدّر الشّجاعة، لكنّه كان سرعان ما ينخدع بمظاهر الشّجاعة كما أنّه كان سريع الانخداع بمظاهر العقل

Twitter: @ketab_n

والفضيلة.

أقبل، إذن، البارون فيلبولد ليقطن قصر الكونت أوسموند

والكونتيسة بيرت، مستقدماً معه فتاة صغيرة جميلة في مهدها، تسمّى هيلدا. كان أوّل ما قام به محاسب القصر هو أن أخبر سيّده الجديد

بالمداخيل وبالمصاريف المرتبطة بالقصر؛ ومن ضمن تلك المصاريف الواجبة كلفة مأدبة عصيدة العسل التي استمرّت في الوجود، رغم كلّ

Twitter: @ketab_n

شيء، إلى غاية تلك اللحظة.

وبما أنّ المحاسب قال للبارون إنّ سالفِيهِ كانوا يولون هذا التّقليد أهمية قصوى، وإنّه يعتقد جازماً أنّ بركة الربّ مرتبطة بهذه العادة، فإنّ فيلبولد لم يكتف بأن لم يُبدِ أية ملاحظة معاكسة، وإنّما أكثر من ذلك، أصدر أمره بأن تقام التّظاهرة، في الفاتح من أيّار من كلّ سنةٍ، بالأبّهة نفسها التي كانت تقام بها.

انصرمت سنوات كثيرة، كان البارون يقدّم خلالها عصيدة جيّدة ولذيذة، الشّيء الذي جعل القرويّين، اعترافاً له بجميل امتثاله لوصايا الكونتيسة بيرت، يتجاوزون عن زلاّته، وما أكثرها! ثمّ إنّ بعض السّادة تبنّوا – عن طيبةٍ أو رغبةً في أمرٍ ما – تقليدَ قصر فيستغاو، فشرعوا يقيمون حفلات أيضاً، أثناء احتفالهم بمناسباتهم الخاصّة أو عند الاحتفال بأعياد ميلادهم الشخصية؛ يقدّمون خلالها عصيدة متفاوتة الحلاوة. غير أنّه، بين أولئك السّادة، كان ثمة شخصٌ لم يكتفِ بأن لم يتأثر البتّة بهذه الأُسوة، وإنّما، أكثر من ذلك، راح يمنع الآخرين من تقديم العصيدة. كان هذا الرّجل – الذي يعتبر من بين أقرب أصدقاء البارون وأحد ضيوفه الدّائمين ومن بين كبار مستشاريه الأكثر تأثيراً فيه – يسمّى الفارس هانس فون فاربورغ.

Twitter: @ketab_n

الفارس هانْس فون فاربورغ

كان الفارس هانس فون فاربورغ عملاقاً حقيقيّاً يصل طوله إلى

ستّ أقدام وبوصتين، ذا قوّة خارقة، يحمل دائماً على خصره سيفاً ضخماً، كان يَصْفقُ به فخذَه كلّما قام بإيماءة تهديد؛ كما كان يحمل معه دائماً خنجراً يستلُّه كلّما شرعَ بالكلام. لكنّه كان، في سريرته، أجبنَ إنسان مشى على الأرض؛ حتّى إنّ إوزّاتِ مزرعته، عندما كانت تشرع

Twitter: @ketab_n

تصيح وتعدو في أثره، كانت تجعله يفرّ وكأنّ الشّيطان نفسه يطارده.

والحال أنّ الفارس هانس لم يكتفِ بأن لم يتبنَّ عادةَ العصيدة كما أشرنا إلى ذلك، وإنّما، وهذا أفظع، عملَ على منع هذه العادة من

الانتشار عند الكثير من جيرانه الذين كان له عليهم بعض التأثير. غير أنّه لم يقف عند هذا الحدّ؛ فعندما ركبه زهوه بالنّجاحات التي حقّقها في هذا المنحى، عمل على أن يجعل البارون فيلبولد نفسه ينقلب على هذه العادة العتيقة والمحترمة.

– بالله عليك يا عزيزي فيلبولد، قال له، أَتعتبِر جيِّداً بالفعل أن تنفق مالك على إطعام مجموعة من الخاملين الّذين يهزؤون بك حتّى قبل أن يهضموا الأكل الّذي تقدّمه لهم!

– لا يا عزيزي هانس، أجاب فيلبولد، صدّقني أنّني قد فكّرت

Twitter: @ketab_n

مرّات عديدة في ما تقوله لي أنت الآن، ذلك أنّ هذه الوجبة، مع أنّها لا تُقدَّم إلاّ مرّة واحدة في السّنة، إنّما تساوي كلفتُها كلفةَ خمسين وجبة عاديّة. لكن ما العمل؛ إنّها تقليد يقال إنّ سعادة هذا البيت مرتبطة به.

– لكن من يحكي لك هذه التّرهات يا عزيزي فيلبولد؟ مديرُ قصركَ الهرِمُ، أليس كذلك؟ أنا أفهم؛ أنا أفهم ذلك؛ فما دام يحصل على عشرة ريالاتٍ من الذّهب من مأدبتك، فإنّه ذو مصلحة في أن تتأبّد.

– كما أنّ هناك، قال البارون، أمراً آخر.

– وما هو؟

– هناك تهديدات الكونتيسة.

– أية كونتيسة؟

Twitter: @ketab_n

– الكونتيسة بيرت.

– أنت تصدّق حكايات الجدّات هذه؟

– ماذا تقول؟ إنّها مؤكّدة؛ كما أنّ في الأرشيف بعض أوراق رقٍّ مكتوبة.

– إذن فأنت تخاف من امرأة عجوز؟

– أنا، أيّها الفارس العزيز، قال البارون، لا أخشى أيّ كائن حيّ؛ أنا لا أخافك ولا أخاف غيرك، لكنّني أعترف أنّني أخاف خوفاً شديداً من هذه الكائنات التي ليست من لحم ولا من عظم، والتي تتجشَّم عناءَ مغادرة العالم الآخر متعمّدةً زيارتنا.

انفجر هانس ضاحكاً.

– لماذا تضحك؟ قال البارون. أمَا كنتَ أنتَ لِتَخافَ لو كنت في مكاني؟

Twitter: @ketab_n

– أنا لا أخشى البشرَ ولا الأطيافَ، عقّبَ هانس وهو ينتصب واقفاً بقامته المديدة.

– ليكن إذن، قال البارون. سأقوم بمحاولة عند مقْدم الموعد المقبل، وهو ليس ببعيد، ما دام الفاتح من أيّار سيحلّ في غضون خمسة عشر يوماً.

لكنّ البارون، ولأنّه التقى بفريتس في المدّة التي فصلت بين حواره مع هانس وبين الفاتح من أيّار، تراجعَ عن قراره الأوّل بأن لا يقدّم العصيدة على الإطلاق، وأمرَ بأن تُقدَّم وجبة عاديّة

عِوَضَ إقامة وليمة فاخرة.

اندهش الفلاّحون وهم يشاهدون هذا الاقتصاد في النفقات،

Twitter: @ketab_n

لكنّهم لم يشتكوا من شيء؛ فقد ظنّوا أنّ سيّدهم، الذي يكون عادةً في غاية الكرم خلال هذه المناسبة، كان له في تلك السّنة أسبابٌ لكي يكون مقتصداً على ذلك النّحو.

لكنّ الأمر لم يكن كذلك بالنّسبة للكائنات التي تعرف كلَّ شيء وتتحكَّم، كما يجب أن نؤكِّد، في مصائر مالِكي قصر فيستغاو؛ لذلك قامت هذه الكائنات، خلال اللَّيلة التي أعقبت تلك الوجبة الهزيلة، بعملية زحزحة لأثاث القصر، كانت من القوّة بحيث لم يستطع أحد

ممّن في القصر أن ينام، فقضوا اللّيل كلّه ذاهبين آيبين يفتحون الأبواب والنّوافذ، كي يعرفوا من كان يفتح هذه أو يطرق تلك؛ لكن لا أحدَ منهم استطاع أن يشاهد شيئاً، ولا حتّى البارون. غير أنّ هذا الأخير

Twitter: @ketab_n

سحب الغطاء على رأسه، كما تفعلون أنتم عندما تكونون خائفين، يا أطفاليَ الأعزّاء، وظلَّ هامداً مغطّىً في سريره.

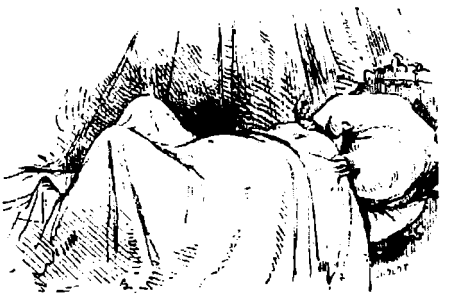

هيلدا

كان فيلبولد، مثله مثل كلّ ضعاف الشخصيّات، يستسهل العناد في بعض الأمور؛ ثمّ علينا أن نقول، أيضاً، إنّه قد شُجِّع على ذلك بسبب غيّاب العقاب؛ ذلك أنّ عدم النّوم طيلة اللّيل لا يُعَدّ، في حقيقة الأمر، عقاباً كبيراً. كما أنّ المرء سيكون قد حقّق صفقة جيدة إن حصلَ على ألفٍ من نقد الفلورين، بتلك المناسبة.

هكذا إذن، استدعى فيلبولد، مدفوعاً بتحريض هانس، ورغبةً منه في ألاّ يبدو وكأنّه يريد أن يضع حدّاً، دفعة واحدة، لعادة صارت تحظى بمسحة من القداسة، استدعى خلال الفاتح من أيّار التّالي، القرويّين

Twitter: @ketab_n

كالعادة؛ لكنّه التزم، هذه المرّة، بحدود منطوق العقد الذي أسَّسَ لوليمة العصيدة، والّذي لا يقول أيَّ كلمة عن وجبة العشاء التي تسبق تقديمها؛ وهكذا حضَّر للمدعوّين عصيدة فقط، دون أن يرفقها بلحم أو بشراب؛ لا بل لاحظ من لديهم ذوق مدرَّب أنّ عصيدة هذه السَّنةً كانت أقلَّ حلاوة من عصيدة السّنة الماضية. وهكذا لا يكون البارون، خلال هذه السَّنة، قد اقتصر على حذف كلّ العناصر الإضافيّة التي ترافق الوليمة عادةً، وإنما اقتصدَ في العسل أيضاً.

هذه المرّة أيضاً غضب زوّار اللّيل بقوّة: لم يسمع سكّان القصر في كلّ أركان المنزل، خلال اللّيلة التّالية، جلبةً مُصِمَّة فقط، وإنّما عثروا أيضاً عندما بزغ النّهار على فتات زجاج النّوافذ والثّريات والأواني

Twitter: @ketab_n

الخزفية المكسورة. قام فريتس بِجَرْدٍ للخسائر النّاجمة عن هذه الحادثة،

فوجد أنّها تعادل تماماً المبلغَ الذي كان مُلاَّك القصر يصرفونه، عادةً، على مأدبة الفاتح من أيّار.

فهم فريتس التّلميح، ولم يتأخّر في أن يعرض على أنظار فيلبولد الجرْد الذي قام به، بطريقة نزيهة.

Twitter: @ketab_n

لكنّ فيلبولد غضب هذه المرّة غضباً شديداً. فهو، على أيّ حال، لم يكن قد رأى بعدُ أحداً من تلك الكائنات، رغم أنّه قد استمع إلى الصّخب الرّهيب الذي أدّى، طيلة اللّيل، إلى جعل أسافل القصر أعاليَه. تمنّى إذن أن تكون الكونتيسة - التي لم يظهر لها أثر منذ اللّيلة التي كانت أتت خلالها لتهدهد الصّغير هيرمان - لم تعُدْ، بفعل كونها ماتت منذ زمن طويل، قادرة على الخروج من قبرها؛ وما دام عليه، في نهاية المطاف، أن يؤدّي كلَّ سنة مبلغاً محدّداً، فإنّه يفضل أن يصرفه في تجديد أثاث قصره عوضَ إطعام الفلاّحين. قرّر إذن أن لا يقدم أيَّ شيء خلال السّنة المقبلة، ولا حتّى العصيدة وحدها؛ لكن، وبما أنّه قد فهم أنّ هذه المخالفة الكاملة للعادات القديمة قد تغضب الكونتيسة بيرت غضباً يوازي في قوّته قوةَ شعورها بالإهانة، فإنّه قد قرّر أن يغادر القصر في الثامن والعشرين من نيسان وألاّ يعود إليه إلاّ في الخامس من أيّار.

لكنّ البارون فيلبولد فون آينزفيلد اصطدم، بعد أن اتّخذ هذا التدبير المشؤوم، بمعارضة لطيفة: كانت قد انقضت خمس عشرة سنة على وجوده في القصر؛ وخلال تلك السنوات الخمس عشرة، كانت تلك الفتاة الجميلة الصّغيرة التي رأيناها تلج القصر في مهدها، قد كبرت وأصبحت جميلة. لقد أضحت فتاة حسناء ورقيقة وتقية وذات قلب رحيم؛ كما أنّ محيّاها كان قد انطبع، من جرّاء انعزالها ومكوثها لوحدها في غرفتها، بسِمْتٍ حزينٍ لاءم محيّاها بشكل رائع وانسجم بشكل غريب مع اسمها النّاعم الرّنين: هيلدا. كان يكفي أن نراها تتجوّل،

Twitter: @ketab_n

نهاراً، في حديقتها وهي تستمع إلى أغاريد الطّيور التي يبدو أنّها كانت تفهمها، أو تتابع، ليلاً، وهي جالسة في نافذتها، القمرَ في السّحب التي كانت تحجبه بين الفينة والفينة، حتّى لَيبدو وكأنّها تحادثه – يكفي ذلك

كي تشعر القلوب الأكثر نفوراً أنّها قادرة على أن تحبّ يوماً، بينما تشعر القلوب الحسّاسة أنّها منذ ذلك الحين قد أحبّت فعلاً.

والحال، أنّ هيلدا عندما سمعت بأنّ أباها قد قرّر التّخلي، خلال تلك السنة، عن عصيدة العسل، قدّمت له، دون أن تتجاوز حدود الاحترام الواجب من الأبناء تجاه آبائهم، كلّ الملاحظات الممكنة؛ لكن لا صوتها الرّخيم ولا نظراتها الرّقيقة استطاعت أن تؤثّر في البارون

Twitter: @ketab_n

الذي أقستْ قلبَه النصائحُ السيّئة التي قدّمها له صديقه هانس.

وهكذا غادر القصر في اليوم الذي حدّده لنفسه، بعد أن قال لمدير القصر إنّ تلك العادة الغبية المتمثّلةَ في تقديم عصيدة العسل قد دامت

لسنين طويلة، وأنّه قد تقرّر، انطلاقاً من الفاتح من أيّار المقبل، أن يُحذف هذا التّقليد الذي لم يكن مُكلِفاً بالنسبة إليه فقط، وإنما أضحى مثالاً سيئاً يعطى للآخرين.

آنذاك، وبعد أن تأكّدت هيلدا من استحالة جعل أبيها يتبنّى مشاعر أرَقَّ، عمدت إلى جمع مدّخراتها القليلة. وبما أن تلك المدّخرات قد وصلت، تماماً، إلى المبلغ الذي كان من المفروض أن يصرفه البارون على عصيدة العسل، أخذت راجلةً طريق القرى التابعة لنفوذ أبيها،

Twitter: @ketab_n

وأذاعت في الناس، بصوت مرتفع، أنّ أباها، الذي أُرغِم على الغياب، قد تعذّر عليه أن يُقدّم، خلال تلك السّنة، وجبة عصيدة العسل، لكنّه

كلّفها بتوزيع المبلغ الذي تساويه الوجبة سنويّاً على الفقراء والمرضى والمسنّين.

صدّقها القرويّون أو ادّعوا أنّهم صدّقوها. وبما أن وجبة السّنة الماضية لم تترك لديهم ذكرى طيّبة، فقد سعِدوا وهم يرون مأدبة هزيلة تتحوّل إلى حسَنةٍ كبيرة، فباركوا اليد التي يحلو للبارون فيلبولد أن يمدّها نحوهم بإحسانه.

وحدها الأشباح التي تسكن القصر لم يكن بالإمكان أن تُخدَع، فرفضت الوقوعَ في حبائل الكذبة البيضاء للحسناء هيلدا.

Twitter: @ketab_n

عاد فيلبولد إلى القصر في الرّابع من أيّار. وأوّل شيء قام به هو

السّؤال عمّا إذا كان قد حدث شيء في غيابه؛ لكنّه عندما علم بأنّ كلّ الأمور كانت على ما يرام، وأنّ أتباعه لم يشتكوا من شيء، وأنّ الأطياف لم تُقِمْ جلَبتها، تعزَّز اقتناعُه بأنَّ مثابرته قد انتهت بأنْ أتعبت هذه الأخيرةَ، وبأنّه قد تخلّص منها إلى الأبد. ونتيجةً لذلك، توجّه، بعد أن قبَّل ابنته وقدّم الأوامر الخاصّة باليوم التّالي، إلى غرفته، ونام مطمئنّ البال.

Twitter: @ketab_n

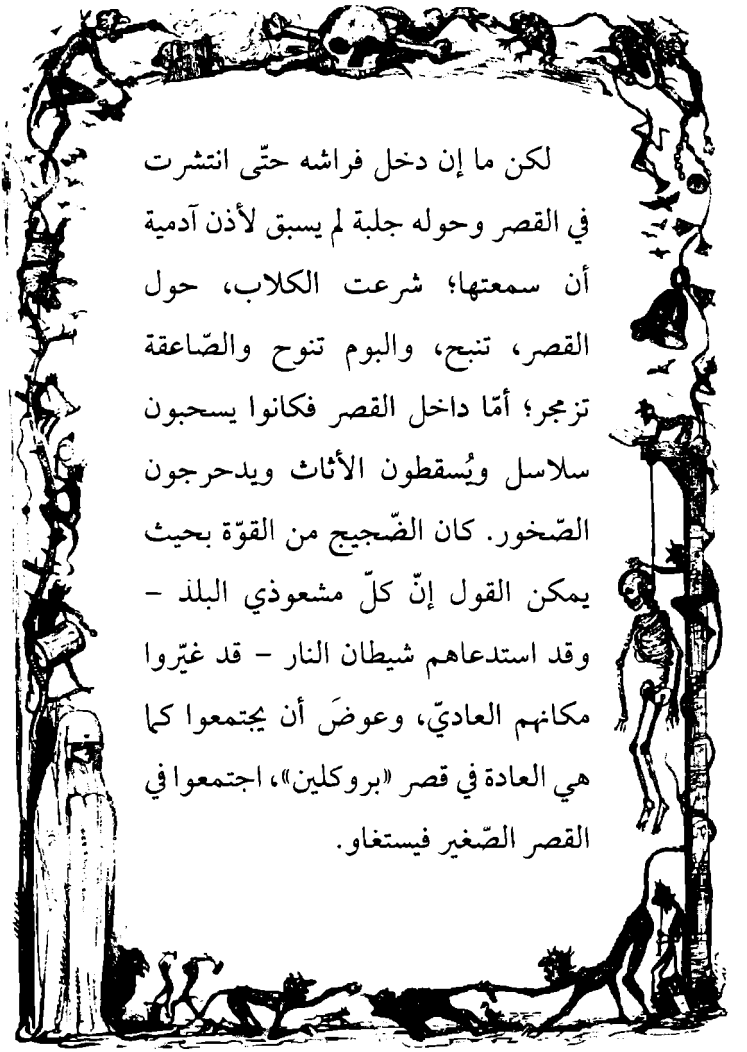

لكن ما إن دخل فراشه حتّى انتشرت في القصر وحوله جلبة لم يسبق لأذن آدمية أن سمعتها؛ شرعت الكلاب، حول القصر، تنبح، والبوم تنوح والصّاعقة تزمجر؛ أمّا داخل القصر فكانوا يسحبون سلاسل ويُسقطون الأثاث ويدحرجون الصّخور. كان الضّجيج من القوّة بحيث يمكن القول إنّ كلّ مشعوذي البلد – وقد استدعاهم شيطان النار – قد غيّروا مكانهم العاديّ، وعوضَ أن يجتمعوا كما هي العادة في قصر «بروكلين»، اجتمعوا في القصر الصّغير فيستغاو.

كفّ الضجيج تماماً عند منتصف اللّيل، فسادَ صمت عميق، إلى درجة أنْ أصبح بإمكان الجميع سماع دقّات منتصف اللّيل الاثنتي

Twitter: @ketab_n

عشرة، دقّة بعد دقّة. عندما سمع فيلبولد الدقّة الأخيرة، أخرج رأسه من تحت الغطاء، وقد شعر ببعض الاطمئنان، فجازف بإجالة بصره حوله. فجأةً انتصب الشّعر فوق جبهته وسال عرق بارد على وجهه؛

ذلك أنّه رأى كفّاً من نارٍ تخرج من الجدار أمام سريره، وشرعت تخطّ على الجدران الدّاكنة للغرفة، بطرف إصبعها، وكأنّها قلم، الكلماتِ الآتية:

كي تَستجِيبَ لأمنية الكونتيسة بيرت
يُمهلك الرّبّ، أيها البارون فيلبولد، سبعة أيام
وإلاّ، فإنّك سترى، يا صانع خَسائِرِكَ بنفسك،
قصرَ فيستغاو يُفلت من بين يديكَ إلى الأبد.

اختفت الكفّ بعد ذلك؛ ثمّ امّحَت الكلمات تِباعاً، بنفس الترتيب

Twitter: @ketab_n

الذي كُتبت به. أخيراً، وعندما انطفأ آخر حرف، غاصت الغرفة، التي أنيرت للحظةٍ بتلك الرباعية المكتوبة بحروف مشتعلة، في ظلام دامس.

وصباح اليوم التّالي، أقبل كلّ خَدَمِ البارون، من أوّلهم إلى آخرهم، كي يطلبوا تسريحهم، مصرّحين بأنّهم ما عادوا يريدون البقاء في القصر.

أجابهم البارون، الذي كان في صميم قلبه أكبر رغبة منهم في مغادرة القصر، بأنّه لا يريد أن ينفصل عن خدَمه الطيّبين، وبأنّه قد قرّر أن يذهب ليسكن في إقامة أخرى، وأن يترك قصر فيستغاو الصّغير للأشباح التي يبدو أنّها ترغب في السّيطرة عليه.

غادروا البرج القديم، في اليوم نفسه، رغم دموع هيلدا، متوجّهين إلى قصر آيزنْفيلد، الذي عاد إلى البارون نتيجة إرث من جهة الأب،

Twitter: @ketab_n

والّذي كان يقع على مسيرةِ نصفِ يومٍ من قصر فيستغاو.

الفارس تورالد

في تلك الأثناء، كان ثمّة خبَران يثيران اللَّغط في روزنْبَرغ؛ يتعلّق الخبر الأوّل بانصراف البارون فيلبولد فون آيزنْفيلد؛ أمّا الثاني فيتحدث عن قدوم الفارس تورالد.

كان الفارس تورالد فتىً وسيماً، في الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين من عمره. وقد سبق له، رغم حداثة سنّه، أن خالط أهمّ

الأوساط الأوربية، حيث أصبح مشهوراً بشجاعته وحُسن أدبه.

وبالفعل، فقد كان فارساً ماهراً؛ ويحكون عن تربيته أموراً خارقة للعادة: يقال إنّه، عندما كان ما يزال طفلاً، سُلِّم إلى ملك الأقزام، الذي كان بدوره أميراً عالماً في كلّ الميادين، فأقسم أن يجعل منه سيّداً مثالياً.

Twitter: @ketab_n

آنذاك علّمه قراءة المخطوطات الأشدّ قِدماً، كما علّمه كلّ اللغات الحيّة بل وحتّى الميتة، وعلّمه الرسم والعزف على العود والغناء وركوب الخيل واستخدام الأسلحة والمبارزة؛ وعندما أدرك سنّ الثامنة عشرة، ولاحظ الملك الوصيّ عليه أنّه أدرك مرتبة التّجويد في كلّ شيء كان

هو يرغب في أن يقوده إليه، سلّمه الفرسَ الشّهيرَ الّذي يحمل اسم بوسيفال، والذي لم يكن يَتعب أبداً؛ كما سلّمه سيف الفارس أستولف Astolphe الشّهير[7]، الذي يُسقِط كلّ الفرسان من على سروجهم، بمجرّد لَمْسِهم بحدّه الماسيّ. وفي الأخير سَلّمه الحسام الشّهير الذي يحمل اسم دوراندال، والّذي يُحيلُ الدّروعَ الأشد قوّةً والأحسن صناعةً إلى فتات وكأنّها من زجاج. بعد ذلك أضاف إلى كلّ هذه الهدايا، التي تُعتَبر في ذاتها عالية القيمة، هِبةً أغلى: يتعلّق الأمر بصرّة يكون بداخلها دائماً خمسٌ وعشرون قطعة ذهبية.

Twitter: @ketab_n

من المفهوم أن يُحدث وصول فارس بهذا الإهاب كلّ تلك الضّجة في البلد؛ لكن، مباشرةً عقب عبوره لقرية روزنْبَرغ، على صهوة فرسه، مسلّحاً برمحه الجميل ومتمنطقاً بسيفه الرّشيق، اختفى وما عاد أحد يسمع عنه أيّ شيء.

ومن النّافل القول إنّ هذا اللّغز لم يفعل إلاّ أن أجَّج في الضّواحي

فضول الناس لمعرفة ما يتعلّق بهذا الفارس.

قيل إنّه قد شوهد مساءً وهو يتأرجح قبالة قصر فيستغاو، على متنِ قارب ثابت، وكأنّه قد ألقى مرساته، رغم أن مجرى نهر الرّاين كان قويّاً. ويقال أيضاً إنّه قد شوهد، حاملاً عُودَه في يده، على قمّة صخرة عالية

Twitter: @ketab_n

منتصبة قبالة نوافذ هيلدا، التي لم يستطع أحد قبله إلاّ الصقور والعقبان وضع مخالبها عليها. لكنّ كلّ هذه الأقاويل لم تكن سوى إشاعات، ولا

يستطيع أحد أن يثبت أنّه التقى بالفارس تورالد، منذ اليوم الذي عبرَ فيه قرية روزنْبَرغ، مدجّجاً بسلاحه وراكباً فرسه.

طارِدا الأشباح

كانت كفّ النار، كما رأيتم يا أصدقائيَ الصّغار، قد أمهلت البارون فيلبولد سبعة أيّام كي يتوب؛ لكنّ هذا الأخير كان قد صمّمَ، مدفوعاً بالنّصائح السّيئة للفارس هانس فون فاربورغ، على عدم التّراجع. وكي يبقى ثابتاً على تصميمه، قرّر أن يقضيَ الأيّام الثّلاثة الأخيرة في الاحتفالات والسّهرات الماجنة. وقد اتّخذ لذلك مبرِّرَ الاحتفالِ بعيد

Twitter: @ketab_n

ميلاد ابنته التي أتت إلى الوجود في الثّامن من أيّار: كانت هيلدا قد ولدت في شهر الزهور.

أمّا الفارس هانس، فكان له دافع آخر ليتردّد باستمرار على منزل صديقه البارون فيلبولد؛ فقد كان أحبّ الحسناء هيلدا حبّاً شديداً، ورغم أنّه كان في الخامسة والأربعين من عمره على الأقلّ، أي أنه يكبر الفتاة ثلاث مرّات، فإنّه لم يتردّد في مفاتحة صديقه بنيّته في الزّواج.

لم يفهم فيلبولد يوماً أحوال القلب التي تُقيم عليها الفتيات أحلامهنّ الحزينة أو الفرِحة، المؤلمة أو المُبهِجة؛ ذلك أنّه اقترن بزوجته

Twitter: @ketab_n

دون أن يحبّها، الأمر الذي لم يمنعه من أن يعيش سعيداً، لأنّ الكونتيسة كانت امرأة فاضلة؛ لذلك اعتقَدَ أنّ هيلدا ليست بحاجة لأن تحبّ زوجها كي تكون سعيدة، بدورها، معه. وقد انضاف إلى استنتاجه هذا

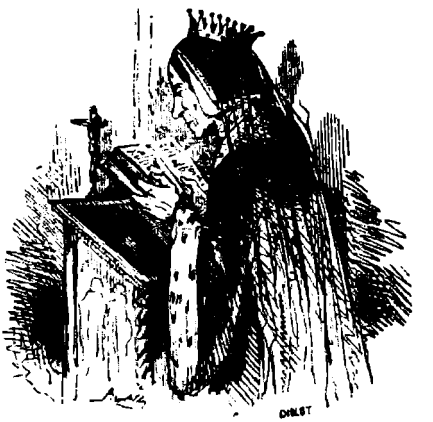

تقديرُه الكبير لشجاعة هانس، وعلمُه المكين بثروته التي كانت، على الأقلّ، تعادل ثروته؛ إضافة إلى العادة التي جرت عنده بأن يكون ذلك الفارس الشّهم ضيفَه السعيد، الذي كان يسلّيه كثيراً بحكاياته الأزلية عن المعارك وعن الدّوريات والمبارزات الثنائية التي يكون فيها، بطبيعة الحال، هو المنتصر على الدّوام.

لذلك لم يقبل ولم يرفض عرضَ الفارس؛ لكنّه جعله يفهم، مع ذلك، أنّه سيُسعِدُه أن يراه يعمل على أن يَرُوق لهيلدا، وهو ما لن يكون

Twitter: @ketab_n

صعباً بالنسبة لفارس مقدام وأنيق ومرهف، مثله.

منذ تلك اللحظة شرع الفارس هانس يضاعف اهتمامه وانتباهه للسيّدة الجليلة التي ملكت عليه فكره، والتي تلقت كلّ دلائل الحبّ هذه بما عُرِفَ عنها من تحفّظ ومن تواضع، معطيةً الانطباع بأنّها تجهل تماماً الهدف الّذي من أجله يكيل لها هانس كلّ تلك المدائح.

في اليوم الخامس، بعد ظهور يد النّار، حلّ، إذن، يومُ عيد ميلاد

هيلدا. وحسب ما تقتضيه مشاريع البارون فيلبولد في قضاء الأيّام الثّلاثة التّالية في إقامة الحفلات، دعا كلّ أصدقائه لعشاء فاخر. ومن المعلوم أنّه لم ينسَ أن يدعوَ من بين مَن دعاهم إلى الوليمة رفيقَه الطيّب والحميم، الفارس هانس فون فاربورغ.

Twitter: @ketab_n

اجتمع الضيوف؛ وفي الوقت الذي كانوا ينتقلون فيه إلى قاعة الأكل، وكلّ واحد منهم يتهيّأ لأن يجلس في المكان المخصّص له، سُمع

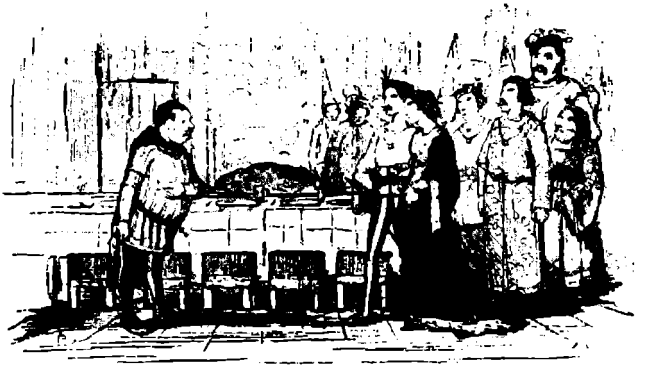

صوت البوق وهو يعلن بصوتِ كبيرِ الخدمِ عن أنّ فارساً قد حلّ بباب

قصر آيزنْفيلد، طالباً الضّيافة.

– يا الله، قال البارون، ها هو ذا شخص له حاسّة شمّ جيدة. اذهبوا

Twitter: @ketab_n

وأخبروه بأنّه مُرحَّب به، وأنّنا في انتظاره كي نجلس إلى المائدة.

بعد خمس دقائق، دخل الفارس.

كان شاباً في العشرين أو في الثانية والعشرين من عمره، أسود الشعر، أزرق العينين، فقدّم نفسه بسلاسة تدلّ على أنّه قد اعتاد، في أسفاره، أن يستضيفه عِلْيَة القوم.

بُهِرَ، على الفور، بِسَمْتِه الرّاقي، كلُّ المدعوين. أمّا البارون فيلبولد، وقد عرف قيمة ضيفه، فقد أراد أن يقدّم له مكانه الخاصّ؛ إلاّ أنّ الرجل المجهول رفض ذلك التّشريف؛ وبعد أن ردّ على دعوة البارون

فيلبولد بإطراءٍ يفيض رقّة، جلس إلى المائدة في أحد الأماكن الثانوية.

لم يكن أحد يعرف هذا الفارس، لذلك شرع الضّيوف جميعاً يتفحّصونه بفضول ظاهر. وحدها هيلدا احتفظت بعينيها منكّستين، ومَن نظر إليها في اللّحظة التي ظهر فيها الفارس على عتبة الغرفة،

Twitter: @ketab_n

بإمكانه أن يكون قد لاحظ أنّ محيّاها قد احمرّ.

كانت الوجبة فاخرة وضاجّة. وقد انتبه الجميع إلى الطّريقة اللّبقة التي كان كلّ من البارون فيلبولد وهانس يتصرّفان بها وهما يتبادلان المجاملات.

ولم يكن ممكناً أن ينتهي حفل العشاء دون أن تتمّ الإشارة إلى قضيّة

ظهور الأشباح في قصر فيستغاو.

أخذ الفارس هانس يسخر من البارون بخصوص حالات الرّعب الّتي كانت تنتابه من ظهور الأشباح؛ وهي حالات رعب كان يعترف بها بصراحة كاملةٍ جديرةٍ بفارس مثله.

– يا إلهي! كنت أودّ أيّها الفارس أن أراك في مكاني، عندما أخذت تلك الكفّ النارية في كتابة رباعيّتها الشهيرة على الجدار؛ إنّها رباعيّة لم أنسَ منها حرفاً واحداً.

Twitter: @ketab_n

– أوهام! عقّبَ هانس. هي مجرّد أحلامِ ذهنٍ متعَب. أنا شخصيّاً لا أؤمن بالأشباح.

– أنت لا تؤمن بها لأنّك لم يسبق لك أن شاهدتَها؛ لكن ما سيكون قولك إن شاهدتَ أحدها؟

– سأطرده، قال هانس وهو يضرب بعنف على سيفه الكبير، بحيث لن يعود أبداً إلى الظّهور في حضوري؛ أنا أؤكّد لك ذلك.

– وعليه، قال البارون فيلبولد، فهل أقدّم لك اقتراحاً يا هانس؟

– أيّ اقتراح؟

– اطرُدْ شبح السيّدة الكونتيسة بيرت بطريقة تجعلها لا تعود أبداً إلى قصر فيستغاو. إن فعلتَ ذلك اطلبْ ما تشاء أُقدِّمْه لك.

– ما أشاء؟

Twitter: @ketab_n

- أجل، أجاب البارون.
- حذارِ! قال الفارس ضاحكاً.
- اطرُدْ شبح الكونتيسة بيرت، واطلبْ ما تشاء.
- أيّ شيء أطلبه منك تقدّمه لي؟
- كلمتي كلمة فارس.
- وإن كان ما سأطلبه منك ابنتك الجميلة هيلدا للزّواج؟
- وإن طلبت ابنتي للزواج.
- أبي! قالت سيّدة القصر الشابّة، بنبرِ عتاب خفيف.
- نعم يا ابنتي! عقّب البارون وقد زادته المشروبات حماسةً. نعم! لقد قلتُ ما قلتُه. أيّها الفارس هانس، أنا لا أتراجع عن كلامي: اطرُدْ شبح الكونتيسة بيرت، تكنْ ابنتي لك.
- وهل تقدّمون الجائزة نفسها، سيّدي البارون- سأل الغريب الشابّ- لمن يقوم بالمهمّة بعد أن يفشل فيها الفارس هانس؟
- عندما سأفشل! صاح هانس. هكذا إذن، أنت تفترض أنّني سأفشل!
- أنا لا أفترض، أيّها الفارس، أجاب الغريب بنبرٍ رقيقٍ للغاية، إلى درجة أن المستمع قد يَخَال أنّه كلام يتفوّه به فمُ امرأة.
- أنت متأكد إذن، قُلْ. تبّاً لك أيّها السيّد الغريب، قال الفارس هانس وقد أصبح نبر صوته أكثر حدّة. أتدري أن ما تقوله لي غير مناسب إطلاقاً؟
- إنّ السّؤال الذي أطرحه أيّها الفارس، أجاب الغريب، لا يمكنه

Twitter: @ketab_n

أن يضرّ بأيّ حال من الأحوال بمشروع زواجكما، ما دام شخص آخر لن يتقدّم إلاّ بعد أن تفشلا أنتما.

– ومن يكون هذا الشّخص الآخر الذي سيتقدّم لإنجاز المهمّة التي قد يفشل الفارس هانس في إنجازها؟

– أنا، قال الغريب.

– لكن، قال البارون، كي أقبل عرضك، رغمَ لباقته، سيكون عليّ، يا ضيفي العزيز، أن أعرف من تكون.

– أنا الفارس تورالد، أجاب الفارس الشابّ.

كان الاسم قد انتشر في البلد كلّه بشكلٍ إيجابيٍّ للغاية، ممّا جعل

المدعوّين، عند سماعه، يقفون لتحيّة الشابّ الذي عرّف بنفسه. لم يكلّف فيلبولد نفسه عناء تقديم أيّ إطراءٍ لبقٍ للفارس الشاب:

Twitter: @ketab_n

– أيّها الفارس، رغم شبابك، فإنّ اسمك قد حَظِيَ بيننا بانتشار مرموقٍ، ممّا يجعل مصاهرتَك أمراً مشرّفاً بالنّسبة لأعرَق الأُسَر. غير أنّ معرفتي بهانس تمتدّ إلى عشرين سنة خلت، بينما أتشرّف الآن بمعرفتك للمرّة الأولى. إذن لا يمكنني بأيّ حال من الأحوال أن أقبل العرض الذي تقدّمتَ به، إلاّ أن أعرضه على ابنتي للموافقة عليه.

احمرّت هيلدا احمراراً شديداً.

– لقد وعدتُ نفسي سلفاً، قال تورالد، بأن لا أتزوّج أيّ امرأة إلاّ بعد أن يكون لدي اليقين بأنّها تحبّني.

ومنذ أن عرّف الفارس الشّاب بنفسه، التزم هانس صمتاً عميقاً.

– إذن، اعلم أيّها الفارس أنّك، ما دمت تجعل الأمر رهين موافقة ابنتي، وما دمت تترك أسبقية الاختبار لصديقي هانس، فإنّني لا أرى سبباً – باستثناء البحث المعمّق حول أسرتك – لعدم إعطائك كلمتي كما أعطيتها له.

– أسرتي تنتمي لنفس مستوى الأسر الألمانية الراقية، سيّدي البارون؛ بل هناك ما هو أكثر ممّا سمعتَ، أضاف الفارس تورالد مبتسماً، فأنا سأخبركم بمعلومة لم تخطر لكم على بالٍ، وهي أنّنا، أنا وأنت، تجمعنا صلة قرابة بشكلٍ من الأشكال.

– أنا وأنت قريبان! صاح فيلبولد مندهشاً.

– نعم سيّدي، أجاب فيلبولد، وسأعمل على توضيح هذا الأمر لاحقاً. أمّا الآن، فليس ثمّة من مجالٍ سوى لأمر واحد، ألا وهو طرد طيف الكونتيسة بيرت.

Twitter: @ketab_n

– أجل، عقّب فيلبولد؛ فأنا أعترف لكم بأنّ هذه هي القضية التي أنا أشَدّ ما أكون استعجالاً لإنهائها.

– إذن، فليقم الفارس هانس بمحاولته هذه اللّيلة، وسأحاول أنا القيام بها خلال اللّيلة التّالية.

– رائـع! قال فيلبولد، هـذا ما يسمّى كلاماً، وأنا أحبّ أن تدار الأمور ببساطة. أيّها الفارس تورالد، أنت شابّ شهم، فلْتلمسْ يديَ إذَنْ.

ثمّ مدّ فيلبولد للفارس كفّاً ضغطها هذا الأخير مصافِحاً وهو ينحني احتراماً.

كان هانس ما يزال ملتزماً صمتَه الكئيب.

التفت فيلبولد إلى النّاحية التي يوجد فيها فاندهش من أن يراه ممتقع اللّون.

Twitter: @ketab_n

– إذن، أيّها الرّفيق هانس، قال له، ها هو ذا اقتراح قُدّم كي يروق لك؛ فبما أنك كنت قبل قليل تستعجل لحظةَ أن تجد نفسك وجهاً لوجه

أمام الأشباح، فإنّ عليك أن تتقدّم بالشكر للفارس تورالد الذي مكّنك من فرصةِ أن تراها هذه اللّيلة نفسها.

– نعم، بالتأكيد، قال الفارس، بكلّ تأكيد؛ لكنّ الأمر سيكون بدون فائدة، وسيكون مَضْيَعة لوقتي، لأنّ الأشباح لن تأتي.

– أنت مخطئ، أيّها الفارس هانس، أجاب تورالد بنبرِ رجلٍ يعرف ما يفعل وما يقول، الأشباح ستأتي.

أصبح هانس ممتقعَ السحنة.

– وبعد هذا، قال تورالد، إن شئتَ، أيّها الفارس هانس، أن تمنحني دورك فإنني سأقبل بذلك ممتنّاً، وسأكون أوّلَ من يُجابه الأشباح؛ فلربّما كانت هيَ أقلّ إرعاباً في المرّة الثانية منها في المرّة الأولى.

Twitter: @ketab_n

– على أيّ حال، قال هانس، بالنسبة إليّ، أيّها الفارس، سيّان عندي أن يكون دوري هو الأوّل أو الثّاني. فإن كنت إذن مصرّاً على أن تكون الأوّل...

– أبداً، أبداً، قال فيلبولد. أنا أريد الاحتفاظ بالأمور كما كانت. ليحتفظ كلّ منكما بدوره أيّها الفارسان. هانس، هذا المساء، والفارس تورالد غداً، وهكذا...

ثمّ ملأ كأسه شراباً ورفعها وهو يقول:

– في صحّة طارِدَي الأشباح!

أبدى الفارسان تورالد وهانس اقتناعهما بما قاله البارون، لكنّ هذا الأخير لاحظ، مندهشاً، أنّ كفّ الفارس هانس كانت ترتعش وهي

Twitter: @ketab_n

تحمل كأسه إلى فمه.

- جيّد، قال فيلبولد. بعد العشاء، ننصرف.

كان الفارس هانس المسكين يبدو مثل جرذ وقعَ في مِصْيَدة.

فلقد اعتقد، في البداية، وهو يلتزم بالقيّام بالمهمّة، أنّه سيتخلص منها بطريقته المعتادة في التشدّق وفي الادّعاء: كان يعتزم أن يتظاهر بولوج القصر، ثمّ يقضي اللّيل خارجه، ويحكي لهم، في الصّباح، كيفما اتّفق، عن المعركة الرّهيبة التي أقامها مع الأشباح، لكنّ الأمر ما عاد ممكناً الآن، فالقضية قد اتّخذت، بفضل التحدّي الذي قبِلَ به تورالد، صبغة خطيرة، إذ أصبح مؤكّداً الآن، أنّ هانس سيكون مراقَباً ولن يغيب عن بصرِ صديقه أو غريمه. وبالفعل، فإنّ البارون فيلبولد انتصب واقفاً، بعد العشاء، وأعلن أنّه سيرافق بنفسه الفارس هانس؛ كما صرح أنّه، كي لا يكون هناك أيّ احتجاج، لا من قِبَله هو ولا من قِبَل الفارس فون تورالد، سيعمل على إغلاق باب غرفة النوم على الفارس هانس، بالمفتاح، ويضع أختامه على الباب.

لم يعد لهانس من مجال للعودة إلى الوراء؛ لذلك اكتفى بأن طلب الإذن بالذّهاب لأخذ درعه وخوذته، كي يكون قادراً على مقاومة العدوّ، إن كان ثمة من عدوّ، فأُذِن له.

توجه هانس، إذن، إلى بيته، وأخذ سلاحه كلّه ثمّ تمّ التوجه إلى قصر فيستغاو الخالي.

كان الموكب يتشكّل من البارون فيلبولد فون آيزنْفيلد والفارس هانس والفارس تورالد ومن ثلاثة مدعوّين آخرين أو أربعة سيكون

Twitter: @ketab_n

عليهم، ما داموا قد أعربوا عن رغبتهم في الاستمتاع بهذا الأمر، على

أيّ وجه انتهى، أن ينتظروا النتيجة في مسكن يوجد بأرض مكريّة تعود إلى البارون فيلبولد، وتقع على بعد نصف فرسخ من القصر.

وصلوا إلى قصر فيستغاو حوالى السّاعة التاسعة مساءً: كان ذلك هو الوقت المناسب للقيّام بالمهمّة.

Twitter: @ketab_n

كان القلق يفترس أعماق الفارس هانس، لكنّه كان يعمل على أن يتظاهر بالعكس، محتفظاً بمظهر صلب للغاية. كان كلّ شيء في القصر يبدو غارقاً في الظلمة الأشدّ حُلكَة، وبما أن أيّ صوت لم يكن يكسر ذلك الصّمت، فإنّ القصر بدوره كان يبدو مثل طيف.

ولجوا المدخل الفارغ، ثمّ عبروا الغرف الشّاسعة المكسوّة أرضيّاتها ببُسُط داكنة، والأروقة التي لا تنتهي؛ وأخيراً انفتح باب غرفة النّوم المشؤومة. كانت الغرفة باردة وهادئة وصامتة مثل باقي أجزاء القصر.

أوقدوا ناراً في المدفأة، ثمّ أناروا الثريّا والشّمعدانات، فتمنّوا مساءً سعيداً للفارس هانس، ثمّ شمّعَ البارون فيلبولد البابَ بعد أن أقفله بالمفتاح، وصحبَ الشّمع بشريط ورقيّ ثمّ وضع على ذلك أختامه مرّتين.

بعد كلّ ذلك، صرخ كلّ واحد من الموكب متمنّياً للمحبوس ليلة

Twitter: @ketab_n

سعيدة، وانصرفوا كي يناموا في مسكن الأرض المكريّة.

عندما وجد هانس نفسه وحيداً في الغرفة، فكّر في أن يخرج من النافذة، لكن لم يكن لذلك من سبيل، لأنّ النافذة كانت تفضي إلى هوّة تجعلها عتمة اللّيل تبدو أكثر عمقاً ممّا هي عليه بالفعل.

فحص الجدران، فردّدت، في كلّ مكان من الغرفة، صوتاً مخنوقاً وبهيماً، ممّا يعني أنْ ليس ثمّة من باب سرّي في الجدران.

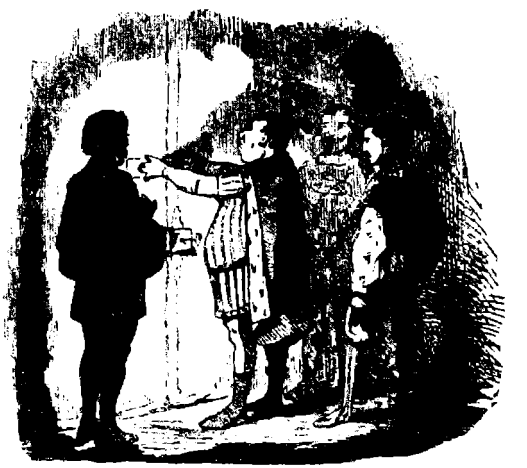

وعليه، فسواءٌ أأرادَ الفارس هانس أو كَرِهَ، لم يكن عليه إلاّ المكوث حيث هو. جسّ الفارس كلّ لباسه الحربيّ، متحققاً ممّا إذا كانت كلّ قطعه ثابتة في مكانها، وممّا إذا كان سيفه في مكانه أيضاً، وإذا كانت

Twitter: @ketab_n

خوذته كما ينبغي. بعد ذلك، وبعد أن تأكّد من أنّ كلّ شيء كان في أحسن حال، جلس على الأريكة التي توجد قبالة المدفأة.

غير أن السّاعات شرعت تنصرم تِباعاً دون أن يطرأ شيء، فبدأ الفارس هانس يشعر بالاطمئنان. فكّر في البداية في أنّه ما دام الجدار خالياً من أيّ باب سرّيّ، وبما أنّ الباب الرسميّ للغرفة مغلق، فإن الأشباح ستلاقي من العنت في الدّخول ما لاقاه هو في الخروج. صحيح أنّه قد سمع الناس يقولون إنّ الأشباح لا تكترث كثيراً بهذا النّوع من الإغلاق، وأنّها تمرّ بسهولة عبر الجدران وعبر ثقوب الأقفال؛ لكن، وعلى أيّ حال، فإنّ وضعه الحاليّ يعتبر، مع ذلك، على قدر من الأمان لا بأس به.

Twitter: @ketab_n

وعلينا أن نقول، إحقاقاً للحقّ، إنّ هانس كان قد شرع ينام عندما بدا له أنّه قد سمع ضجّة كبرى في مدخنة المدفأة؛ لذلك ألقى على الفور بقطعة خشب في النار التي كانت أخذت تخبو، معتقداً أنّه بصنيعه ذاك سيحرق سيقان الأشباح إن هي فكّرت في أن تسلك تلك الطريق. التهبت النار، بالفعل، من جديد، وبدأت تصعد لصقَ الصفيحة، مصوِّتةً وراقصةً، عندما رأى الفارس هانس، فجأة، طرف لوحٍ يخرج من المدفأة. كان بعرضِ قدمٍ تقريباً، وهو يتحرّك ويتمدّد دون أن

يستطيع الرائي معرفة من يحرّكه. واصل اللّوح نزوله منحرفاً، وعندما لمس الأرض، اتّخذ شكلاً شبيهاً بشكل جسر فوق ألسنة اللّهب. وفي الآن نفسه، شرع عدد كبير من الأقزام يتزحلقون على ذلك الجسر وكأنّهم يتزحلقون في قطارات اللّعبة المعروفة بلعبة الجبال الرّوسية[8]،

Twitter: @ketab_n

يقودهم ملكهم الذي كان يبدو - وهو مدجّج بسلاحه مثل الفارس هانس - وكأنّه يقودهم إلى معركة.

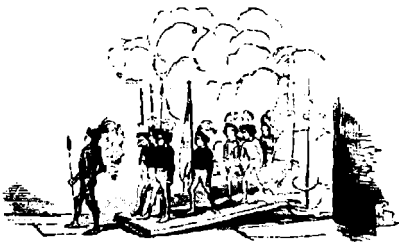

وبالموازاة مع نزول الأقزام عبر الجسر، كان هانس يتراجع إلى

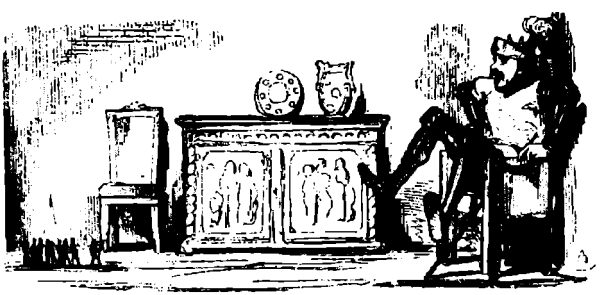

الخلف، وهو جالس على أريكته ذات العجلات. وذلك إلى درجة أنّ هانس، عندما اصطفّ الملك ورجال جيشه أمام المدفأة مستعدّين

Twitter: @ketab_n

للمعركة، كان قد وصل إلى الطرف القصيّ من الغرفة؛ ووحده الجدار منعه من أن يذهب إلى أبعد من ذلك. كان بين الطّرفين إذن مساحة شاسعة.

آنذاك، تقدّم ملك الأقزام بمفرده عبر المساحة الفارغة التي تفصل بينهما، بعد أن تشاور مع ضبّاطه وجنرالاته.

- أيّها الفارس هانس، قال ملك الأقزام بنبر ساخر، كثيراً ما استمعتُ إلى كلام يمدح شجاعتك الكبرى ويُطري عليها. صحيح أنّني سمعتُ هذا الكلام منك أنت؛ لكن، وبما أنّ الفارس الحقيقيّ لا يمكنه أن يكذب، فقد كنت مقتنعاً بأنّك لم تكن تقول إلاّ الحقيقة. ونتيجة لما سمعته عنك، فإنّ فكرة قد راودتني؛ وهي أن أقابلك في معركة فردية. فبعد أن علمت بأنّك قد عرضت على البارون فيلبولد أن تطرد الشّبح الذي يظهر في القصر، استطعت أن أحصل من هذا الشّبح نفسه، الذي يُعَدّ أحد أصدقائي الحميمين، إذْناً بأن آخذ مكانه خلال هذه اللّيلة. إن استطعت أن تفوز في المعركة، أعدك بالنّيابة عن صديقي الشّبح بأنّه سيغادر القصر ولن يعود إلى الظهور أبداً. أمّا إن انهزمتَ، فإنّك ستعترف علناً بهزيمتك، وستُخلي مكانك للفارس تورالد، الذي لن أجد صعوبة كبرى في هزمه هو الآخر، لأنه لم يسبق لي أبداً أن سمعت أنّه قد قام بشطر أحد إلى نصفين. نتيجةً لكلّ هذا، ونظراً لعدم شكّي البتة في أنّك ستقبل هذا التحدّي،

Twitter: @ketab_n

خذ قُفّازي هذا.

عند تلفُّظ ملك الأقزام بهذه الكلمات، ألقى بقفّازه، بأبّهة، قرب قدَم الفارس هانس.

أثناء إلقاء ملك الأقزام لخطبته، بصوت ضعيف، لكنّه واضح، كان الفارس هانس يتفحّصه بدقّة؛ وعندما تأكّد من أنّ طوله لا يتجاوز ستّ بوصات ونصف البوصة، شرع يشعر ببعض الطّمأنينة، فخصمٌ مثْلُ ذاك لم يبد له جديراً بأن يهابَه؛ لذلك انحنى ورفع القفّاز بنوع من الثّقة، ووضعه على طرف إصبعه الصّغرى.

كان القفّاز من ذلك النوع الّذي يلبسه الفرسان أثناء المسايفة، وهو

Twitter: @ketab_n

مصنوعٌ من جلد فأرِ مِسْك، ومزيَّن بطريقة متقنة وبديعة بقطع فولاذية صغيرة.

منح ملك الأقزام الفارس هانس فرصة كافية ليفحص القفّاز؛ ثمّ قال بعد لحظة من الصّمت:

– ماذا ترى أيّها الفارس؟ أنا في انتظار جوابك. هل تقبل التحدّي أم ترفضه؟

ألقى الفارس هانس، من جديد، بنظرة على البطل الماثل أمامه يتحدّاه، والذي لا يتجاوز في طوله نصفَ طولِ ساقه هو، فشعر من قامته تلك بالاطمئنان، وقال:

– وبأيّ سلاح ستتعارك؟

– نتعارك كلٌّ بسلاحه، أنت بسيفك، قال، وأنا بسوطي.

– ماذا؟ أنت تدخل المعركة بسوطك؟

– نعم، فالسوط هو سلاحي المعتاد، عليّ أن أعمل على إصابتك عن

Twitter: @ketab_n

بُعدٍ نظراً لصغري.

انفجر هانس ضاحكاً، وهو يقول:

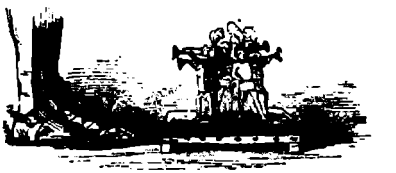

- وستدخل المعركة ضدّي معتمداً على سوطك؟

- بدون أدنى شكّ. ألم تسمع؟ سبق أن قلتُ لك إنّ السّوط هو سلاحي المعتاد؟

- ولن تستعمل مع السّوط سلاحاً آخر؟

- لا.

- وهل تلتزم بذلك؟

- لك كلمة فارس وكلمة ملك.

- إذن، أنا أقبل المعركة، أجاب الفارس هانس.

وعقب قوله ذاك، ألقى بدوره بالقفّاز إلى جانب قدم ملك الأقزام.

- جيّد، قال الملك، وهو يعود القهقرى إلى الخلف مخافة أن يُسحق تحت قدمَيْ الفارس هانس. لتُعزف مزامير الحرب.

شرع، في اللحظة نفسها، اثنا عشر بوقاً يحملها أقزام وقد صعدوا

Twitter: @ketab_n

فوق كراسيّ، في إطلاق نفير المعركة، فأتوا على الفور إلى الملك بالسّلاح الذي سيُقاتل به.

كان السّلاح عبارة عن سوط صغير يتكوّن مقبضه من زمرُّدة واحدة. وعلى قمّة ذلك المقبض، كانت تتفرّع خمس سلاسل فولاذية

يصل طولها إلى ثلاثة أقدام، وتلمع على أطرافها ماسّات بحجم حبّات البازلاّء. ورغم قيمة المادّة التي يتشكّل منها سلاح الملك، فإنّه كان يبدو شديد الشّبَه بتلك المَقارع التي تُنفَض بها الملابس.

امتشق الفارس هانس، من جهته، سيفه، تغمره الثقة بقوّته.

Twitter: @ketab_n

– متى شئت نبدأ، قال الملك للفارس.

– تحتَ أمرك، سيّدي، قال هانس.

في تلك اللّحظة نفسها، أطلقت المزامير أصواتاً حربية أشدّ قوّة من الأولى، فانطلقت المعركة.

لكنّ الفارس هانس، وبمجرد تلقّيه الضّربات الأولى من خصمه، شعر بأنّه كان قد أخطأ عندما احتقر سلاح ملك الأقزام. فرغم أنّه كان

محميّاً بدرعه، كان يشعر بضربات السّوط تصل إلى جسده وكأنّه عارٍ، ذلك أن الماسّات الخمس، وحيثما لامست جسد الفارس هانس، كانت تخترق الحديد كما لو كانت تغوص في عجينة رخوة، وليس في الحديد. شرع هانس إذن، عوض أن يحاول الدفاع عن نفسه، يصرخ ويصيح

Twitter: @ketab_n

ويعدو في الغرفة، وفي القفز حول الأثاث وفي الصّعود إلى السّرير، مطارَداً من كلّ جانب بسوط ملك الأقزام العنيد، بينما كانت الألحان الحربية التي تعزفها المزامير تناسب تماماً ظروف المعركة؛ إذ غيّرت هذه الألحان من إيقاعاتها وطبيعتها لتصبح، بالأحرى، لحناً شبيهاً بإيقاع خبَب الفرَس.

وهذا اللّحن نفسه، يا أطفالي الأعزّاء، هو الّذي عثر عليه الموسيقار العظيم أوبير فوضعه، دون أن يقول عنه كلمة واحدة، في الحركة الخامسة من أثره الموسيقيّ المعنوَن **غوستاف**[9].

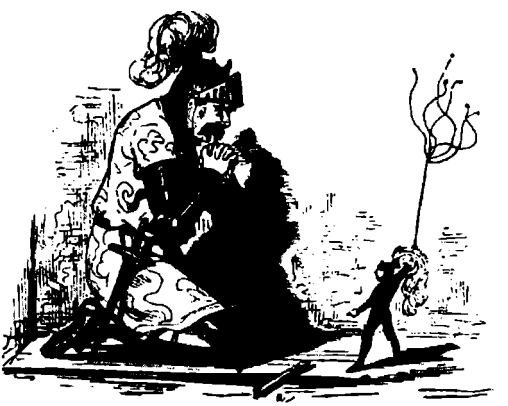

بعد خمس دقائق من هذا التمرين، جثا الفارس هانس على ركبتيه طالباً الصّفح.

Twitter: @ketab_n

عندئذ سلّم ملك الأقزام سوطه لمساعده وأمسك بصولجانه الملكيّ وخاطب الفارس هانس:

- أنت، أيّها الفارس هانس، لست سوى امرأة حقيقية؛ إنّ ما يلائمك، ليس بالتأكيد هو السّيف، وإنّما مكوك حياكةٍ ومِغْزَل.

وعندما تلفّظ بتلك الكلمات، لمسه بصولجانه. ومن تلك اللّمسة، شعر هانس أنّ تغييراً كبيراً شرع يطرأ على شخصه. آنذاك انفجر

الأقزام ضاحكين، واختفوا جميعاً وكأنّهم لم يكونوا حقيقة ماثلة وإنما مجرّد رؤيا.

Twitter: @ketab_n

الفارس ذو المِغْزَل

شرع الفارس هانس، في البداية، يجيل بصره فيما حوله. كان وحيداً في الغرفة.

عندئذٍ أخذ يستطلع جسده، فَبُهِتَ.

كان يلبس ملابس امرأة عجوز: تحوّل درْعه إلى تنّورة من قماش ناعم مخطَّط؛ وتحوّلت خوذته إلى ما يشبه قبّعات العجائز. أمّا سيفه فقد تحوّل إلى مكوك وأصبح خنجره مغزلاً.

أنتم تعرفون بالطبع، يا أطفالي الصّغار، أنّ الفارس هانس احتفظ، مع لباسه ذاك، بلحيته وبشاربه، فكان يبدو فظّاً ودميماً بشكل صارخ.

Twitter: @ketab_n

عندما انتبه الفارس هانس إلى أنّه يلبس تلك الملابس المضحكة، كشّرَ بوجهه، فبدا أكثر فظاظة ودمامة. لكنّ فكرة راودته على الفور

بأن يخلع تلك الملابس وبأن يندسّ في الفراش، لأنّه قدّر أنّه عندما يقوم بذلك سيكون قد محا كلّ أثر لما حدث لتوّه. فوضع مغزله على الأريكة وهمّ بأن يأخذ في فكّ اشتباك تسريحته؛ لكنّ المغزل انطلق، على

Twitter: @ketab_n

الفور، من فوق الأريكة حيث وُضع، وشرع يكيل له ضربات قوية على أصابعه، ممّا جعله يواجه مرّة ثانية ذلك الخصم العنيد.

أراد هانس في البداية أن يدافع عن نفسه؛ لكنّ المغزل كان من القدرة على المسايفة، بحيث جعل هانس يضطرّ إلى إدخال كفّيه في جيبيه.

آنذاك، عاد المغزل مطمئنّاً إلى مكانه بجانب الفارس هانس، فحظيَ هذا الأخيرة بلحظة راحة، استغلّها كي يتفحّص عدوّه عن قرب.

كان مغزلاً عادياً، مشابهاً لكلّ المغازل الموجودة في الدّنيا بأجمعها. ولئن لم يكن أنيقاً مثل باقي المغازل، إلاّ أنّه ينتهي، في طرفه العلويّ، برأس صغير مستهزئ وساخر، يبدو وكأنّه

يُخرج لسانه إغاظةً للفارس هانس.

تظاهر الفارس بأنّه يبدي ابتسامة لخصمه، وهو يقترب من المدفأة،

Twitter: @ketab_n

وفي لحظة، أمسك بالمغزل من وسطه وألقى به في النار.

لكنّ المغزل، ما إن ألفى نفسه وسط النّار حتّى انتصب تصعد منه ألسنة ملتهبة، وشرع يعدو في عقب الفارس هانس الّذي لم يكن هذه

المرّة في طريقه إلى الهزيمة وإنّما إلى أن يحترق، فاضطرّ من جديد إلى طلب الصّفح.

في تلك اللحظة خمدت النّار فالتحق المغزل، بتواضع، بحزام الفارس.

كان الوضع خطيراً بالنّسبة للفارس هانس، لأنّ النّهار كان قد بدأ يبزغ، ولن يتأخّر البارون فيلبولد والفارس تورالد والآخرون في

Twitter: @ketab_n

المجيء. بدأ الفارس هانس يفكّر في طريقة يتخلّص بها من ذلك المغزل اللّعين، فراودته فكرة أن يُلقي به من النّافذة.

آنذاك بدأ يقترب من النّافذة، وهو يدندن بلحن، حتّى لا يثير لدى المغزل أيّ شكّ حول نواياه، وعندما فتح النّافذة معطياً الانطباع بأنّه يريد أن يشاهد المنظر الطّبيعيّ وأن يستنشق هواء الصباح الطّريّ، أمسك فجأة بخصمه الغريب، وألقى به في الهاوية ثمّ أقفل النّافذة على الفور. فجأةً سمع جلبة انكسار زجاج، فالتفت نحو النّافذة الثّانية. كان المغزل الذي ألقي به من نافذة قد عاد إلى الغرفة من النّافذة الأخرى.

لكنّ المغزل، الّذي تعرّض للغدر لمرّتين متتاليتَين، كان هذه المرّة في ذروة غضبه؛ ارتمى بعنف على الفارس هانس، وبضربات قويّة متوالية

Twitter: @ketab_n

من رأسه، أثخن بالجراح كلّ جسده. شرع الفارس هانس يطلق صرخات قويّة.

أخيراً، وعندما سقط هانس في الأريكة، منهكاً، أشفق المغزل على حاله وعاد ليأخذ مكانه على حزامه.

عندئذ ظنَّ هانس أنّ بإمكانه أن يخلِّص عدوّه من غضبه، إن هو قام بشيء من أجله، لذلك بدأ يغزل.

بدا المغزل، على الفور، وكأنّه راضٍ؛ شرع رأسه الصّغير يتحرّك وهو يغمز بعينه من المتعة، وبدأ، بدوره، يدندن بلحن.

سمع هانس، في تلك اللحظة، ضجيجاً في الممرّ، فأراد أن يكفّ عن الغزل؛ لكنّه عندما تذكّر تلك الضّربات التي كالها له المغزل على

Twitter: @ketab_n

أصابعه، اضطرّ إلى المواصلة.

لكنّ الخطوات اقتربت، ثمّ وقفت أمام باب الغرفة. كان هانس يستشيط غضباً من أن يفاجئوه وهو يرتدي تلك الثياب، ثمّ وهو يقوم بالغزل، لكن لم تكن له أية وسيلة أخرى كي يتخلّص من الأمرين معاً.

وبالفعل، فبعد لحظة، انفتح الباب، فظلّ البارون فيلبولد والفارس تورالد والأشخاص الثّلاثة أو الأربعة الّذين يرافقونهما مبهورين أمام المنظر العجيب الماثل أمام أبصارهم.

فها هو هانس، الّذي غادروه وهو يرتدي ملابسه الحربية، قد أضحى بلباس امرأة عجوز وله مغزل ومكوك حياكة.

أطلق القادمون الجدد ضحكات عالية، في حين ظل هانس حائراً لا يعرف ما الذي عليه أن يفعله.

Twitter: @ketab_n

– يا إلهي! قال البارون فيلبولد، يبدو أنّ الأشباح التي ظهرت لك هذه اللّيلة، أيّها الرفيق هانس، تملك مزاجاً مرحاً، وعليك الآن أن تحكي لنا ما الّذي حدث لك خلال هذه اللّيلة.

– نَعَم، الأمر هكذا، أجاب هانس، الّذي كان يأمل في أن يتخلّص من ورطته بواسطة ادّعاءٍ من ادّعاءاته المعروفة. هذا ما حصل؛ فالأمر يتعلّق بِرِهان.

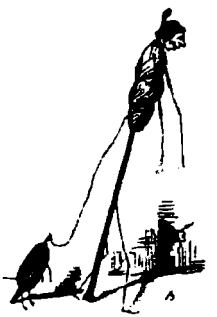

لكن، وفي تلك اللّحظة، كالَ له المغزل، الّذي رأى أنّ الفارس هانس مقدِم على كذبة، ضربة قوية على أظافره، ممّا جعله يطلق صرخة قوية.

– أيّها المغزل اللّعين، تمتم قائلاً، ثمّ واصل كلامه:

– يتعلّق الأمر بِرِهانٍ قمت به، بعدما فكّرت في أنّه ما دام الشّبح شبحَ امرأةٍ، فمن غير المجدي أن أنتظر قدومه وأنا مدجّج بالسّلاح، فاقتصرت على المغزل والمكوك.

لكن، وفي تلك اللحظة، ورغم نظرة التّوسل التي ألقاها الفارس

Twitter: @ketab_n

هانس إلى المغزل، فإنّ هذا الأخير لم يرحمه، وشرع يضربه على أظافره، حتّى انتبه البارون فيلبولد للأمر فقال:

– ماذا أيّها الرّفيق هانس، أنا أرى أنك تكذب، وأن الضّرب الذي يكيله لك المغزل سببه كذبك. أخبرنا بالحقيقة وسيتركك المغزل هانئاً.

وكما لو أنّ المغزل فهمَ ما تلفّظ به البارون فيلبولد، قام تجاهه بحركة تدلّ على إجلاله له، مع إيماءة من رأسه يُبلغه من خلالها أنّ ما قاله هو عين الصواب.

وجد الفارس هانس نفسه، إذن، مرغماً على أن يحكي كلّ ما جرى بكلّ تفاصيله. كان يهمّ، بين الفينة والأخرى، بأن يزيغ عن الحقيقة، وأن يعمد إلى تطريز بعض الفصول الكاذبة عن شجاعته الوهميّة؛

لكنّ المغزل، الذي كان يظلّ هادئاً عندما لا يعمد هانس إلى الكذب، كان يلتجئ إلى ضربه كلّما رأى أنّه يقول كلاماً مجانباً للصّواب، ممّا كان يضطرّه، على الفور، إلى العودة إلى جادّة الصّواب التي يكون قد انحرف عنها للحظة.

Twitter: @ketab_n

عندما أنهى الحكاية، بتفاصيلها، من بدايتها إلى نهايتها، قام المغزل تجاهه بحركة إجلال ساخرة، وحيّا باحترام شديدٍ باقي الحاضرين، ثمّ غادر الغرفة من بابها متقافزاً على ذيله، وهو يصحب معه مكوك الحياكة، الذي كان يمشي وراءه كما يمشي أيّ طفل وراء أمّه.

أمّا الفارس هانس، فعندما تأكّد من أنّ المغزل قد غادر فعلاً وابتعد عن القصر، فرّ من الباب نفسه وذهب، وسط صيحات الحاضرين، كي يختبئ في قصره.

الكنز

كان الدَّورُ دَورَ الفارس تورالد كي يقضي اللّيلة التّالية في الغرفة؛ لكنّ هذا الأخير تأهّب لمهمّته اللّيليّة بكثير من التّواضع والتّركيز، على عكس الفارس هانس الذي كان استسهل مهمّته، معوِّلاً على تبجُّحه وادّعاءاته.

Twitter: @ketab_n

وكما فعلوا مع الفارس هانس، أخذوا تورالد أيضاً إلى الغرفة وحبسوه فيها، بعد أن أغلقوا الباب وشمَّعوه؛ لكنَّه لم يُدخل معه إلى الغرفة أيّ سلاح، قائلاً إنّ أية مقاومة إنسانيّة تكون بلا قيمة وبلا جدوى أمام الأشباح، لأنّ هذه الأخيرة تأتي بأمر من الله.

وعليه، فبمجرّد أن بقي وحده في الغرفة، أدّى صلاته بخشوع وشرع ينتظر، جالساً على الأريكة، أن يتفضّل الشّبح بالظّهور.

ظلّ على تلك الحال لبضع ساعات، عيناه شاخصتان إلى الباب، دون أن يرى أيّ شيء غير اعتياديّ. ثمّ، فجأةً، سمع خلفه صوتاً باهتاً ثمّ شعر بأنّ شيئاً ما كان يلمس كتفه برفق.

Twitter: @ketab_n

التفت فوجد خلفه طيف الكونتيسة بيرت.

لكنّ الشاب لم يُبد أمام حضور الشّبح أيّ رعب، بل على العكس من ذلك ابتسم ابتسامة أليفة وكأنّ الطّيف صديق قديم.

– تورالد، قال شبح الكونتيسة، لقد أصبحتَ ما كنتُ أصبو لأن تصبحه؛ أقصد أنّك قد أصبحت رجلاً طيباً وشجاعاً وتقيّاً؛ فلْيَكن جزاؤك إذن بمقدار ما تستحقّه.

عندئذ، أشارت عليه بأن يتبعها. اتّجهت نحو الجدار، وعندما لمسته انفتح فظهر كنز عظيم كان الكونت أوسموند قد خبّأه هناك، عندما كان وجد نفسه مضطراً لمغادرة القصر.

– هذا الكنز لك يا ولدي، قالت الكونتيسة؛ وحتّى لا يكون في إمكان أيٍّ كان أن ينازعك إياه، فإنّه قد وُضِعَ هنا على أن لا يستطيع أحد غيرك أن يفتح الجدار، أمّا الاسم الذي عليك أن تتلفّظ به كي ينفتح لك، فهو اسم محبوبتك الغالية هيلدا.

بعد أن تلفّظت الكونتيسة هذه الكلمات، شرع الجدار ينغلق بطريقة متقنة، إلى درجة أصبح معها غيرَ ممكن رؤيةُ أثر التقاء الدّفتين.

بعد ذلك، وبعد أن أبدى الشّبح نحو الفارس تورالد ابتسامة أخيرة وحيّاه برأسه تحيّة احترام، اختفى كما يختفي البخار عندما يتلاشى.

عندما حلّ صباح اليوم التّالي، دخل البارون فيلبولد ومرافقوه الغرفة فوجدوا الفارس تورالد نائماً بهدوء على الأريكة.

أيقظ البارون فيلبولد الشابّ، ففتح عينيه مبتسماً.

– أيّها الصديق تورالد، لقد رأيتُ في منامي خلال هذه اللّيلة حلماً.

Twitter: @ketab_n

- أيّ حلم؟ سأل تورالد.

- رأيت في حلمي أنّ اسمك ليس هو تورالد، وإنما هيرمان؛ وأنّك كنت حفيداً للكونت أوسموند، وأنّ النّاس يعتقدون أنّك قد فارقت الحياة، رغم أنّك ما زلتَ حيّاً، وأنّ جدّتك الكونتيسة بيرت قد تجلّت هذه اللّيلة وظهرت كي تكشف لك وجود كنز.

فهم الفارس تورالد أنّ ذلك الحلم كان إيحاءً من السّماء حتّى لا تراود البارون فيلبولد فون آيزنْفيلد أية شكوك.

انتصب الفارس تورالد واقفاً، دون أن ينبس ببنت شفة، ثمّ أشار، بدوره، إلى البارون بأن يتبعه، ثمّ توقّف أمام الجدار.

- لم يكن حلمك كاذباً في شيء، سيّدي البارون؛ فأنا بالفعل هيرمان الذي يعتقد الجميع أنّه قد فارق الحياة. وقد تجلّت لي بالفعل جدّتي بيرت، خلال هذه اللّيلة، فأطلعتني على الكنز؛ ودليلي على ذلك هو هذا.

Twitter: @ketab_n

بعد أن تلفّظ هيرمان – وهو بالفعل هيرمان، الطّفلُ المسكين الذي كانت الكونتيسة بيرت قد استلمته في قبرها، ثمّ سلّمته بعد ذلك إلى

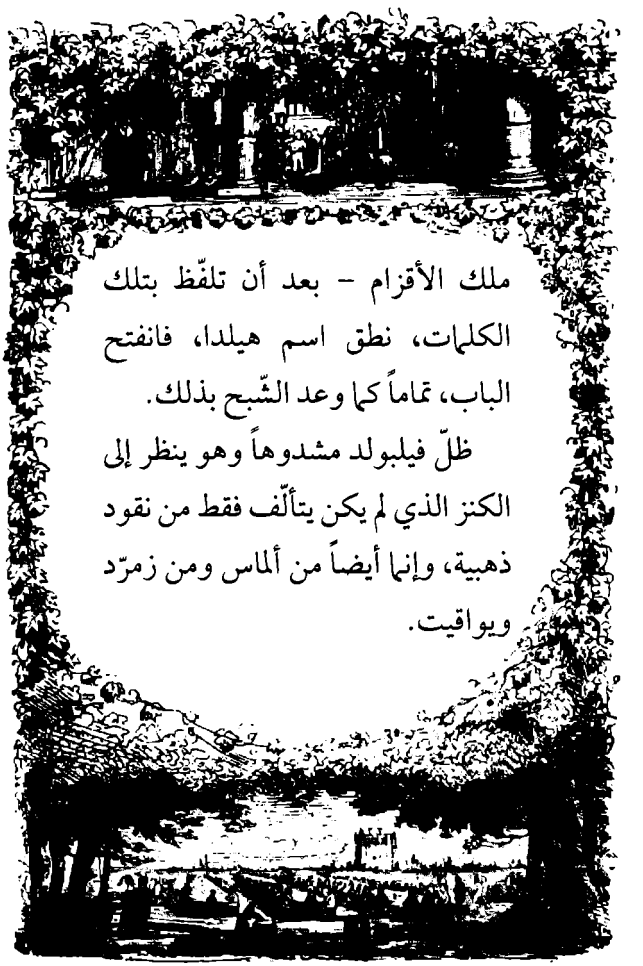

– نعم يا هيرمان، يا بن العمّ. أنا أرى بالفعل أنّك ما كنت تقول

Twitter: @ketab_n

إلاّ الحقيقة، وأنا أقول لك إنّ قصر فيستغاو وابنتي هيلدا هما لك؛ لكن بشرط واحد.

– وما هذا الشّرط؟ سأل هيرمان بقلق.

– أن تلتزم، في الفاتح من أيّار من كلّ سنةٍ، بتقديم عصيدة الكونتيسة بيرت لفلاّحي روزنْبَرغ وضواحيها.

ومن المعلوم أنّ هيرمان قد قَبِلَ الشرط ممتنّاً.

خاتمة

بعد ثمانية أيّام من ذلك التّاريخ، اقترن هيرمان فون روزنْبَرغ بهيلدا فون آينزينفلد؛ وما دام القصر قائماً في مكانه، فسيظلّ نسْلهما يقدّم، في الفاتح من أيّار من كلّ سنةٍ، لسكّان فون روزنْبَرغ والضّواحي، عصيدةَ الكونتيسة بيرت، بسخاءٍ وبدون انقطاع.

Twitter: @ketab_n

الحواشي

(1): نشرَ الكاتب **عصيدة الكونتيسة بيرت** منفردة في 1844، وصرّح بأنه استوحاها من عناصر متعدّدة من الفولكلور الجرمانيّ.

(2): إشارة إلى شخصيّة روبنسون كروسو، بطل رواية الكاتب الإنجليزيّ دانيال دوفو Daniel Defoe (1659 أو 1731–1661)، المعنوَنة **روبنسون كروسو** *Robinson Crusoe*. بطل الرّاوية هو النّاجي الوحيد من سفينة تغرق في المحيط الكاريبيّ، تقذفه الأمواج على شاطئ جزيرة غير مسكونة فيعمّرها وحده، ثمّ ينقذ شاباً أسود من مجموعة من آكلي لحوم البشر كانوا قد جاؤوا به إلى الجزيرة لالتهامه، ويجعل منه رفيقه ومُساعِده.

(3): إشارة إلى نابليون فرانسوا شارل جوزيف بونابرت، نجل الامبراطور نابليون بونابرت. ولد الابن في 1811 وتوفّي باكراً في 1832. كان والده قد سمّاه منذ ولادته «ملك روما» وكان ينوي أن يجعل البابا يصادق على تتويج ابنه ملكاً لهذه المدينة التي كان نابليون يريد أن يجعل منها المدينة الثانية في الامبراطورية من حيث الأهميّة بعد باريس. إلاّ أنّ تدهور العلاقات بين نابليون والبابا وانهيار الامبراطورية الفرنسية بعد سنوات حالا دون تحقيق حلمه ذاك.

(4): الحكايتان الأولى والثانية هما للكاتب الفرنسيّ شارل بيرّو Charles Perrault ، والثالثة للكاتبة الفرنسيّة ماري–كاترين دونْوا Marie-Catherine D'Aulnoy. والحكايات الثلاث من النّصوص الهامّة في

Twitter: @ketab_n

أدب الناشئة، ويجد القارئ العربيّ ترجماتها في اثنين من كتب هذه السّلسلة، يحمل الأوّل عنوان «حكايات أمّي الإوزّة» لشارل بيرّو، وعنوان الثاني هو «العصفور الأزرق وحكايات أخرى» لماري–كاترين دونوا.

(5): على امتداد هذه الترجمة، وضعنا أسماء الأعلام الألمانية بنطقها الألمانيّ بعدما كان المؤلّف قد عمدَ إلى فرْنسَتها غالباً.

(6): تُسمّى أيضاً «أرضَ مُزارَعة»، وهي الأرض التي تُتقاسَم غلّتها بين المؤجِّر والمستأجِر.

(7): أحد أبطال الملحمة الشعريّة الأسطوريّة **أورلاندو الغاضب** *Orlando Furioso*، كتبها الشّاعر الإيطاليّ لودوفيكو أرْيوستو Ludovico Ariosto في مطلع القرن السّادس عشر.

(8): تتكوّن لعبة الجبال الرّوسيّة من قطارات صغيرة تدور في مسارات متعرّجة ومتشابكة.

(9): **غوستاف الثّالث** *Gustave III*، أوبرا تاريخيّة للمؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ دانيال أوبير Daniel Auber (1782-1871).

Twitter: @ketab_n

عصيدة الكونتيسة بيرت

عليَّ أن أخبركم، يا أبنائي الأعزّاء، بأنّه، في غابر العصر والزمان، كان يوجد في ألمانيا جنسٌ من العفاريت الطّيبين اختفَى، للأسف الشّديد، منذئذٍ؛ كان أطوَلهم يبلغ بالكاد ستَّ بوصات، وكان يُطلَق عليهم اسم أقزام الكوبولد. كان أولئك الأقزام، الّذين يوازون في قِدمهم قدمَ التاريخ، يسعدون بالخصوص في القصور التي يكون مُلاّكُها، حسب مشيئة الله، طيّبين مثلهم. كانوا يمقتون المُلاّك الشّريرينَ، وكانوا يصيبونهم بأذيّاتٍ صغيرةٍ على مقاسِهم، وكانوا، على العكس من ذلك، يحمون، بسلطتهم التي كانت تمتدُّ لتشملَ كلّ العناصر، مَن تُقرّبهم طبيعتُهم الممتازة من طبيعتهم هم أنفسهم. هذا إذن هو السّبب في أنّ هؤلاء الأقزام - الذين سكنوا قصر فيستغاو منذ أزمنة سحيقة - كانوا يكنّون بالخصوص للكونت أوسموند ولزوجته الكونتيسة بيرت حبّاً جمّاً، هم الذين من قبلُ عرفوا آباءَهُما وأجدادَهُما وأجدادَ أجدادِهما، فكانوا يدفعون بأنفاسهم السّحابةَ المحمّلة بالبرَد والبرق بعيداً عن مزارعهما المباركة.

@ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة

كلمة KALIMA

الهدهد HUDHUD

9 789948 171461